

ليوناردو شاشّا

حكاية بسيطة



ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد

#945

المتوسط

حكاية بسيطة



المؤلف: ليوناردو شاشّا / المترجم: عرفان رشيد / عنوان الكتاب: حكاية بسيطة
الطبعة الأولى: 2021.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-04-2



منشورات المتوسط

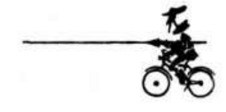
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org



ليوناردو شاشّا

حكاية بسيطة

ترجمها عن الإيطالية: **عرفان رشيد**



المتوسط

"مرّةً أخرى أُريد الغوص بأناةٍ لأبحث في الإمكانيات
التي ما تزال قائمةً أمام العدالة"

فريدريش دورّينمات

رنّ الهاتف في التاسعة وسبع وثلاثين دقيقة من مساء السبت، الثامن عشر من آذار، عشيّة العيد الصاخب والبهيج الذي تخصّصه المدينة للقدّيس يوسف النّجّار: وإلى القدّيس النّجّار، بالفعل، كانت تُهدَى النيران الناتجة عن حَرْق الأثاث الخشبي القديم في مشاعل عامّة تُضرم وسط الأحياء الشّعبيّة، وكانت تلك المشاعل بمثابة وعدٍ من السّكّان للنّجّارين، الذين انخفض عددهم كثيراً، بأنهم لن يفتقدوا العمل في المستقبل.

كانت مكاتب دائرة الشرطة في تلك الساعة قفراء أكثر من أيٍّ من الأماسي الأخرى في الساعة ذاتها، لكنّها كانت مُضاءةً بالكامل. فإضاءة مكاتب دائرة الشرطة مساءً واجبٌ لا يُحاد عنه، لم تكن هناك أوامر مكتوبة في هذا الصدد، لكنّها عُدَّت واجباً مُتّفقاً عليه، الهدف منه هو إعطاء المواطنين الإحساس بأن الشرطة ساهرة على أمنهم ليل نهار.

وَثَّقَ شرطيٌّ مقسّم الهواتف ساعةَ وصول المكالمة واسم المتصل: "جورجو روتشيلا".

كانت نبرة صوته مُهذّبة، هادئة ومُقنعة.

"إنّه ككل المجانين".

ولأنّ السّيّد روتشيلا كان يطلب محادثة مدير الشرطة، فقد فكّر شرطيّ المقسم: جنون حقيقي، بالذات في تلك الساعة في ليلة كتلك الليلة ذات الخصوصية.

وحاول الرّدّ بالنبرة المُهذّبة ذاتها التي تكلّم بها المُتصل، لكنه لم يتمكّن إلّا من اصطناع وتقليد صورة ساخرة لذلك التهذيب، وكانت تلك الصورة الساخرة أكثر وضوحاً بسبب الفتور الذي ردّ به على المُتصل:

"سيّدي، حين تدور الساعة دورتها في مثل هذا الوقت، فإنّكَ لن تجد مدير الدائرة متواجداً(*)"...

كانت تلك الجملة، متراكبةِ المعاني والمغزى، تكراراً للمَزْحَة التي تتردّد عادةً في تلك الدائرة للسخرية المبطّنة من الغياب المزمن لمدير الشرطة عن مكتبه. وأضاف:

"أُمرّركَ إلى مكتب المفوّض".

وكانت لدى شرطي مقسم الهواتف رغبة للتّلذّذ بمماحكة المفوّض، الذي كان، من المؤكّد، يستعدّ للخروج من مكتبه ومن الدائرة في تلك اللحظة بالذات.

---

*) Il Questore in quest'ora in questura non c'è

وبالفعل، كان المفوّض يُوشكُ على ارتداء معطفه. فبادر العريف، الذي كانت طاولته في الزاوية القريبة من الهاتف، إلى رفع السمّاعة. استَمَعَ إلى مُحادِثه، وبحث على سطح طاولة المفوّض عن قلم وقطعة ورقيّة، وبينما كان يكتب، أكّد للمُحادِث، بأنهم سيذهبون إلى الموقع في أقرب وقت، مؤكِّداً له حدوث ذلك بالتأكيد، لكنْ، مُلمِّحاً بأنّ ذلك التأكيد لم يكُنْ ليعني على الفور وفي الحال.

"مَن المُتكلم؟"، سأل المفوّض.

"شخص، يقول إنه يرغب أن يُريَنا على عجل ما وجده في منزله".

"وجد جثّةً، مثلاً؟"، قال المفوّض بنبرة متهكّمة.

"كلاّ، لقد قال بالضبط إنه يريد أن يُريَنا شيئاً ما".

"شيئاً ما! ... وما اسم هذا الشخص؟".

رفع العريف قطعة الورقة التي سجّل فيها الاسم والعنوان، وقرأ: "جورجو روتشيلا، حَيّ كوتُونيو، خروجاً من التقاطع الذاهب إلى مونتي روسّو، الشارع الواقع على اليمين، بعد أربعة كيلومترات، أي أنّ المكان يبعد من هنا خمسة عشر كيلومتراً".

عاد المفوّض من الباب إلى طاولة العريف، وأعاد قراءة ما كتبه

العريف في الورقة كما لو أنّه كان مقتنعاً بأنّه سيكتشف ما هو أكثر ممّا قاله العريف، لو قرأ المكتوب بعينَيْه هو.

قال: "غير معقول!".

"ماذا؟"، سأل العريف.

"روتشيلا، هذا"، قال المفوّض "إنه دبلوماسي، قنصل أو سفير في مكان ما. لم يأتِ إلى المدينة منذ أعوام. منزله في المدينة مُغلَق وبيته الرّيفيّ مهجور ومتهالك، ويقع في حَيّ كوتونيو، بالضبط ... إنه البيت الذي يُرى إلى الأعلى من الشارع، ويبدو كما لو كان حصناً ...".

"بيت ريفي قديم"، قال العريف "مررتُ من أمامه مرّات عديدة".

"في ما وراء السور، الذي يُظهِر المكان وكأنّه بيتٌ ريفيٌ قديم، ثمّة فيلّا جميلة للغاية، أو .. على الأقلّ، هكذا كانت ... عائلة كبيرة، عائلة روتشيلا هذه: لكنها انتهت بهذا القنصل أو السفير ... تصوّر! لم أكن حتّى أتوقّع أنّه ما يزال على قيد الحياة، فهو غائب منذ وقت طويل".

"إنْ أردتَ، سيّدي"، قال العريف "فإنّ بإمكاني أن أذهب إلى هناك، وألقي نظرة".

"لا، لا، أنا واثق بأن الأمر لا يعدو عن كونه مَزْحَة ... غداً، ربّما، إذا توفّر لديكَ الوقت، وأحسستَ بالرغبة، اذهبْ، وألقِ نظرة ... وبقَدْر ما يتعلّق الأمر بي أنا، فمهما حدث، لا تبحثوا عنّي يوم غد: أنا ذاهب للاحتفال بعيد القدّيس يوسف لدى صديق لي في الريف".

في اليوم التالي، ذهب العريف إلى حَيّ كُوتونيو ضمن مفرزة مكوَّنة منه ومن شُرطيَّيْن. كان يخامره إحساس بأنه سيقوم بجولة في الريف، وهو ذات الإحساس الذي خامر رفيقيْ رحلته أيضاً. فلا بدّ أنّ المكان غير مأهول، كما قال المفوّض، ولم تكن المكالمة الهاتفية ليلة الأمس إلّا مَزْحَة. جدولٌ صغير، كان يمرّ يوماً ما عند أعتاب التّلّة، لم يعدْ اليوم إلّا سريراً من الأحجار والحصى البيضاء الناصعة كما العظام، غير أن قمّة التّلّة التي يقوم عليها المنزل كانت خصبة الخضرة. وكانت نوايا الرجال الثلاثة متركّزة على البحث عن نبات الآسباراغوس والهندباء، لمجرّد الانتهاء من تحرّي المكان. كانوا يعدّون أنفسهم للاحتفال بهذا الأمر، لكونهم، الثلاثة، خبراء في البحث عن هذه النباتات البريّة، لتحدُّرهم من أصول فلاحية سابقة.

اجتازوا سور المنزل الذي لم يكن غير أجزاء من جدار متهالك، بالضبط كما كان يُرى من الخارج. لكنّهم وجدوا هناك مخازن موصَدة بسلاسل حديديّة جديدة ومشعّة المعدن، وكانت هذه المخازن تحيط بالفيلاّ الصغيرة التي بدت جميلة رغم ما طالها من

علائم التهالك والهَجْر. داروا حول الفيلاّ. كانت النوافذ جميعها مُغلقة، إلّا واحدة، وكان زجاجها يُتيح الرؤية إلى الداخل. وبما أنّ نور الشمس كان قوياً في ذلك الصباح المشمس من شهر آذار، فقد تمكّنوا من مشاهدة ما في داخل المنزل بشكل مُبهَم. لكنهم، حين حجبوا النور الخارجي بأكفّهم، تمكّنوا من رؤيةٍ أفضل لما في الداخل، وتأكّدت لديهم رؤية رجلٍ جالس على كرسي وقد تهاوى رأسه على سطح الطاولة التي يجلس إليها.

اتّخذ العريف في الحال قرار تحطيم زجاج النافذة، ليتمكّن من فَتْحها من الداخل، وليلجَ إلى داخل المنزل: فربّما هوى الرجل في جلسته بسبب جلطة قلبيّة أو لأيّ سبب آخر، وقد يكون حَيّاً، وبحاجة إلى الإسعاف الفوري.

كان الرجل ميتاً، لكنْ، ليس بسبب الجلطة أو الذبحة القلبية، بل لأنّ رأسه كان مثقوباً ما بين الفكّ الأعلى والصدغ، وقد نزل خيط من الدم المتخثّر الأسود على وجهه..

وفي الحال هتف العريف بالشّرطيَّيْن، اللّذَيْن عبرا النافذة في غضون ذلك، ودخلا إلى الغرفة: "لا تلمسا أيّ شيء!"، ولكي لا يُضطرّ هو نفسه إلى الإمساك بسمّاعة الهاتف التي كانت على الطاولة، فقد أمر أحد الشّرطيَّيْن بالعودة إلى دائرة الشرطة للإبلاغ عن الحادث لإرسال طبيب في الحال، إضافة إلى مصوّر فوتوغرافي واثنَيْن أو ثلاثة من أولئك الذين يُعدّون من ذوي الحظوة في دائرة

الشرطة، والذين يُعرَّفون بكونهم خبراء جنائيّيْن: في حين لم يكن العريف يرى فيهم إلّا ذوي حظوة فحسب، لأنهم لم يشتركوا حتّى تلك اللحظة في فكّ عُقَد أيّة قضية، ولم يمنحوا حتّى الآن أيّة إسهامة ناجعة، بل على العكس، فقد كانت إسهاماتهم تزيد من تعقيد الأمور فحسب.

وبعد أن انتهى من إعطاء أوامره تلك، وجدّد تأكيده على الشّرطيّ الآخر الذي مكث معه بألاّ يلمس أيّ شيء، واصل العريف عمله في التّحرّي وجَمْعِ المعلومات لغرض المهمّة الأعسر بالنسبة إليه، أي كتابة التقرير الذي عليه إعداده. كان هذا الأمر يقضُّ مضجعه، إذْ لم تكن آصرته مع اللغة الإيطالية جيّدة رغم محاولاته الدّراسيّة كلّها. إلّا أنه، وبرغم ذلك، كان يُجيد كتابة وتوثيق ما تشاهده عيناه. ولو وضعنا جانباً القلق والهلع اللّذَيْن يُهيمنان عليه في مثل هذه الحالات، فقد كتب العريف دائماً تقارير لا بأس بمحتوياتها. كان ذلك القلق يُعينُ ذهنه على تذكّر واقتناص جملٍ وتعبيرات من قراءات كثيرة أيّام الدراسة وأيّام الجامعة، بالذات ممّا تركه كتّاب الجنوب، والصّقلّيّون منهم بالذات.

كان الانطباع الأوّل يشير إلى أن الرجل انتحر. المسدّس على الأرض إلى يمين الكرسي الذي يجلس فوقه. كان سلاحاً قديماً، ألماني الصنع، ويعود تاريخ صناعته إلى فترة الحرب العالمية الأولى، وهو من نوع الأسلحة التي كان الجنود العائدون من الجبهة يحملونها معهم إلى ديارهم. إلاّ أنّ إحساسه الابتدائي بكون الرجل

قد انتحر زال بسبب جزئية بسيطة. فبدلاً من أن تتدلّ إلى جوار الكرسي بالقرب من المسدّس الذي سقط عَلى الأرض، فقد كانت يد الرجل ترتاح على الطاولة، وتحتها ورقة، كُتبت عليها جملة:

"لقد وجدتُ.".

أضاءت تلك النقطة المكتوبة ما بعد كلمة "وجدت" ذهن العريف، واستعاد بسرعة شديدة احتمالاً لكيفيةِ مسار الأحداث، وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنّه يقف إزاء عملية قتل، أُريد منها أنْ تبدو انتحاراً. فقد بدأ الرجل بكتابة "لقد وجدتُ"، بالضبط كما كان أكّد في مكالمته الهاتفية مع دائرة الشرطة بأنه "وجد" شيئاً ما، لم يكن يترقّب أن يجده في منزله. وكان يُزمع على الكتابة للإبلاغ عن ذلك الشيء الذي وجده في منزله، وقد ساورتْهُ الشكوك في احتمال عدم حضور الشرطة في ذلك المساء، وربّما تسرّبت إلى داخله المخاوف في وحدته وفي جوّ الصمت الذي يحيط به. لكن أحداً ما طَرَقَ الباب. "ها هي الشرطة"، ربّما فكّر الرجل، ولم يكن ذلك الطارق إلّا القاتل الذي قدّم نفسه كشرطي، فأدخله الرجل منزله، وعاد ليُكمل ما كان قد بدأ بكتابته عمّا عثر عليه في منزله. وربّما كان المسدّس موضوعاً على الطاولة، إذْ يُحتمل أنّه كان قد سارع إلى إخراجه من المشجب الذي تذكّر أنه حُفِظَ في داخله، وقد يكون فعل ذلك بعد أن هيمن الخوف على قلبه.

كان العريف واثقاً من أنّه ليس لدى القَتَلَة الحاليّيْن مسدّس

شبيه بذلك الذي استخدمه القاتل. وربّما شاهد القاتل المسدّس موضوعاً على الطاولة، واستفسر من الرجل ما إذا كان مُعمّراً، وتأكّد من ذلك، وبادر على الفور بإطلاق رصاصة الرحمة على رأس الرجل. ومن ثمّ أكمل المهمّة التي بدأها المغدور، فوضع النقطة ما بعد جملة "لقد وجدتُ." :كما لو أنه يرغب في أن يقول "لقد وجدتُ. بأن الحياة لا تستحقّ أن تُعاش"، أو "لقد وجدتُ. الحقيقة الوحيدة والقصوى"، أو "لقد وجدتُ."، أو "لقد عثرتُ على كل شيء واللاشيء".

وفي ذهن العريف لم تكن فكرة الانتحار قادرةً على الوقوف على قائمَيْن. إلاّ أن القاتل لم يرَ أيّ خطأٍ في تلك النقطة المكتوبة في نهاية الكلمتين: فبرأيه كانت تلك النقطة ستُطلق العنان لتأويلات وجوديّة وفلسفية لدى لأصحاب الرأي القائل بأنّه انتحر (كان العريف واثقاً من ذلك)، سيّما وأنّ الغموض الذي يُحيط بشخصيّة القتيل يوفّر مفردات لذلك النوع من القراءة.

كانت هناك على الطاولة رُزمة من المفاتيح ودواةَ حبر قديم مُرصّعٍ بالأصداف، صورةٌ جماعية لأصدقاء مبتهجين التُقطت قبل أكثر من خمسين سنةً في حديقةٍ ما، ربّما تكون حديقة الفيلا ذاتها، إذْ يُفترض أن الباحة كانت عامرة بالأشجار المزروعة بانتظام، كانت تولّد قدراً من الظلال المريحة، فيما هي تمتلئُ الآن بالأغصان الجافّة وبأوراق الشجر المنثورة في كلّ مكان.

وإلى جانب الورقة التي كُتبت عليها جملة "لقد وجدتُ." كان هناك قلم حبر مُغلق: رهافةٌ في السلوك من قِبَل القاتل لتوليد القناعة بأنّ الرجل كان قد وضع حداً لوجوده حين خطَّ تلك النقطة. (فيما كانت قناعة العريف تترسّخ تدريجيّاً بأنّ العملية ليست إلاّ جريمة قتل)

كانت جدران الصالة مغطّاة برفوف مكتبة شبه خالية من الكتب، ولم يكن ما بقى على تلك الرفوف إلاّ بضع مُجلّداتٍ لنشرات دورية قضائية، وأدلّة زراعية، وملاحق لمجلّة تحمل عنوان "الطبيعة والفنون"، وكان هناك أيضاً صفٌ عامودي عالٍ من الكتب القديمة التي قرأ العريف عنوانها "كاليبينوس(*)". كان قد اعتقد دائماً بأنّ الـ "كاليبينو" عبارة عن كتاب جيب، أو مفكّرة صغيرة، وبدا له غريباً أن يُطلقَ اسم التصغير ذاك على كُتبٍ يزن كل جزءٍ منها ما يربو على عشرة كيلوغرامات على الأقل. ونأى بنفسه عن إشباع فضوله إزاءها بفتح صفحاتها مخافة أن يترك بصماته عليها: وللفضول ذاته، تجوّل في الأرجاء يتبعه الشرطي المرافق له، لكن دون أن يمسّا أي قطعة من الأثاث أو أياً من مقابض الأبواب المفتوحة أو المُغلقة.

كان المنزل أوسع بكثير ممّا يمكن أن يُرى من الخارج، وكانت صالة الطعام واسعة وفيها مائدة كبيرة صُنعت من خشب البلّوط، وثمةَ أربع خزائن للأواني والصحون والأقداح والشراشف. وكانت

*) مُعجمٌ ضخم، وإنْ بدا عنوانه تصغيراً.

هناك غُرفتا نوم بفراش ووسائد مكوّمة على الأسرّة، وبدا أحد الأسرّة وكأنّ أحداً لم ينم فيه خلال الليلة السابقة. وربّما كانت هناك، وراء الباب المغلق أسرّةٌ أخرى، لكن العريف امتنع عن فتح الباب. بدا البيت مهجوراً، وبدا أنّ الكثير من محتوياته قد نُهب، الكتب واللوحات والأواني الخزفيّة (كان ذلك واضحاً من الفراغات في الغبار على الرفوف)، ومع ذلك لم يكن المنزل يمنح الإحساس بأنّه غيرُ مأهول. فهناك رماد وأعقاب سجائر في المنافض، وبعضٌ من بقايا نبيذٍ جفّ في قعر كؤوس حُمِلت إلى المطبخ بِنِيّةِ غسلها في وقتٍ لاحق. كان المطبخ فسيحاً، وبموقد للنار، فُرنٌ وجدران مُغطّاة بقطعٍ من خزف فالينسيا، وعُلّق على الجدران عدد من الأواني النحاسيّة: كانت تلك الأواني تنمّ عن ترفٍ غابرٍ ميّز المكان فيما مضى. وكان في المطبخ بابٌ يقود إلى دَرَجٍ ضيّقٍ ومظلم، دون أن يكون واضحاً إلى أين يُفضي.

بحث العريف عن زر التيار الكهربائي ليُضيء الدَرَج، فلم يعثر إلا على الزر الذي أضاء مصابيح الموقد الخشبي. وبعد أن صعد خمساً أو ست درجات من السلّم مُتردّداً، ابتدأ بإشعال أعواد الثقاب. وقد أشعل منها الكثير قبل بلوغه إلى الأعلى، وحيث يوجد مخزنٌ ما تحت السقف. غرفة يلامس سقفَها رأس ذوي القامات طبيعية. كانت الغرفة بسعة صالة الطعام. كان المكان محتشداً بالكراسي المبقورة والأرائك القديمة، إضافةً إلى عدد من الصناديق

الخشبيّة والأُطر الفارغة من اللوحات، وألبسة علاها الغبار. وكان في الإرجاء عدد من جذوع التماثيل التشخيصيّة لقدّيسي الكنيسة: كان عددها يربو على عشرة تماثيل مُذهّبة، يبرز من بينها جذعٌ كبير، صُبّ بالفضّة في الصدر، بعباءة سوداء على الكتف، وكان وجه ذلك القدّيس عابساً. وحملت كلٌ الجذوع لوحة خُطّ عليها اسم القدّيس، ولم تكن لدى العريف لا الايمان ولا الثقافة الدينية الكافية للتعرّف إلى القدّيس إينياتسيو في صاحب الجذع الأكبر.

أوقد العريف عود الثقاب الأخير الذي بقي لديه، وسارع في الهبوط إلى لأسفل. "سقف مسكونٌ بالموت ومليء بالقدّيسين" شرح للشرطي الذي انتظره في الأسفل عند بداية الدَرَجْ. شعر وكأنّ الغبار وشباك العناكب قد هطلت على جسده كالمطر. سارع بالخروج من المنزل عبر الشباك الذي كسر زجاجه، ليجد نفسه غارقاً في ضياء النهار الربيعي البارد المُنار بالشمس المُشرقة، وكان العشب ما يزال مُبلّلاً بآخر ذرّات الندى قبل أن تتبخّر.

وبرفقة الشرطي، الذي كان يتبعه على بعد بضع خطوات، دارا حول المنزل فوجدا هناك ساحة صغيرة كانت تفيد في مناورات وتحرّكات السيارات، أو ربمّا بعض الشاحنات الصغيرة "يبدو أنّ المكان شهد حركة مرور نشطة" قال العريف. ثم سألَ الشرطي وهو يُشير بيده، "ما رأيك بسلاسل الحديد هذه؟": وكان يعني ما

أوصدت به أبواب المخازن أو الاسطبلات المحيطة بالمنزل الشبيه بحصنٍ في فيلم ويسترن أمريكي.

"إنّها سلاسل جديدة"، قال الشرطي

"أحسنت" ردّ العريف.



لم تمضِ أكثر من ساعَتَيْنْ إلّا ووصل جميع مَنْ كان عليهم أن يتواجدوا في المكان: مدير الشرطة، وكيل النيابة، الطبيب الشّرعيّ والصّحفيّ المفضّل لدى مدير الشرطة وثُلّة من رجال الشرطة، وكان واضحاً بينهم حضور شرطة التّحريّات. ستّ أو سبعُ سيّارات كانت ما تزال صفّاراتها دائرةً ومصابيحها مضاءة رغم وصولها إلى المكان منذ وقت طويل، ولا بدّ أنهم فعلوا ذلك أيضاً خلال مغادرتهم المدينة مثيرين سلسلة من التساؤلات والفضول واللغط الشّعبيّ حول ما حدث، وهو اللغط الذي كان مدير الشرطة يسعى إلى تحقيقه دائماً، إضافة إلى سعيه في إغضاب كولونيل شرطة الدرك (الكارابينييري)(*) الذي وصل المكان بعد الآخرين، وكان السُّخط بادياً على مُحيّاه، ومستعدّاً للعراك مع مدير الشرطة، مع حفظ الاحترامات والألقاب.

لقد وصل الكولونيل متأخّراً عن الآخرين بحوالي نصف ساعة. كانت الأبواب جميعها قد فُتِحَت بمساعدة رُزمة المفاتيح التي وُجدَت على الطاولة التي أُسنِدَ عليها رأس الميت، وكانت شرطة

*) الشرطة العسكرية، وهي من أقدم قطعات الشرطة الإيطالية، وتتبع إلى وزارة الدفاع، وتمارس أيضاً مهمّات حفظ الأمن والنظام.

التّحريّات بدأت برفع بصمات الأصابع بشكل سطحي، ودونما عناية، وصُور الميت من الزوايا جميعها.

بغيظ مكتوم، قال كولونيل الشرطة العسكرية:

"ألم يكن بمقدوركم إبلاغي؟".

"آسف"، أجاب مدير الشرطة "لقد سارت الأمور كلها بسرعة كبيرة في غضون دقائق قليلة للغاية".

"نعم، أفهم ذلك ..."، أجاب الكولونيل بسخرية.

رُفع المسدّس عن الأرض بإدخال قلم في بيت الزناد، ووُضع بأناة داخل قطعة من القماش الأسود، ولُفّ بعناية فائقة. "البصمات في الحال"، قال مدير الشرطة. كانت بصمات الميث قد رُفعت في المكان.

"إنه عمل فائض عن الحاجة"، قال مدير الشرطة بحزم، "لكنْ، ينبغي أن يُنجَز، على أيّة حال".

"ولِمَ تعدّه فائضاً عن الحاجة؟"، سأل الكولونيل.

"انتحار"، قال مدير الشرطة بمهابة، وليرى ما إذا كانت لدى الكولونيل افتراضات أخرى.

"سيّدي المدير..."، تدخّل العريف .

"ما تريد قوله ينبغي عليكَ أن تُضمّنه في تقريركَ ... على أيّة حال..."، ولم يكن لديه ما يقوله أو يكرّره غير "انتحار، إنها حالة واضحة المعالم لعملية انتحار".

حاول العريف مرّة أخرى ليقول "سيّدي المدير ..."، كان يسعى إلى إبلاغه حول المكالمة الهاتفية في الليلة السابقة على الجريمة، وعن تلك النقطة المكتوبة بعد جملة "لقد وجدتُ.".

إلّا أن مدير الشرطة كان حاسماً في مقاطعته "نريد التقرير"، مشيراً إلى نفسه، وإلى ووكيل النيابة، وبعد أن نظر إلى الساعة في معصمه، قال "بداية بعد الظهر". واستدار إلى وكيل النيابة وإلى الكولونيل: "هذه قضية بسيطة، ولا ينبغي تكبيرها، ينبغي الإسراع في غلقها في أقرب وقت ... اذهبْ لتكتب التقرير بسرعة".

لكنّ كولونيل الدرك صنّف الحادث في الحال مُعتبراً إيّاه مُعقّداً للغاية، وفي الأحوال جميعها يستحيل إغلاقه بشكلٍ سريع. وبصرف النظر عمّنْ كان الأشخاص الذين يمثّلون الشرطة الاعتيادية والشرطة العسكرية، فقد كان التباين في وجهات النظر ما بين المؤسّسَتَيْن ينبعث في الحال. فثمّة بونٌ تاريخي شاسع يفصل بينهما، وكان مَنْ يقع بين مسنّنات هذه المطحنة من المواطنين يعاني الأمَرَّيْن.

قال العريف "أوامرك، سيّدي"، وخرج ليجد بأنّ السّيّارة التي رافقتْهُ إلى مكان الحادث قد غادرت عائدة إلى مركز الشرطة في المدينة. كان يشعر بالغضب والحنق لطريقة مدير الشرطة في

التعامل معه، ولأنّه كان مُتحرّراً من عُقدةِ ما يُصطلَح عليه بـ "روحية التضامن بين أفراد الكتيبة الواحدة" أي روحيّة مَنْ يعدّون القوّة التي ينتمون إليها فوق كل شيء، وبأنّها صاحبة الحقّ على الدوام، فقد خطرت في ذهنه فكرة لا تخلو من الجسارة.

وخطرت تلك الفكرة في ذهنه عندما شاهد نظيره الذي يرتدي بِزّة الدرك جالساً وراء مقود السّيّارة التي أقلّت الكولونيل من المدينة إلى مكان الحادث، فذهب ليجلس إلى جواره في المقعد الأمامي، ولأنّهما كانا يعرفان بعضهما الآخر بشكل جيّد، فقد روى لزميله كلّ ما يعرف عن الحادث، وعبّر له عن شكوكه جميعها حول المُصاب مشيراً إلى أبواب المخازن حوالي الفيلّا، وإلى السلاسل الجديدة والملتمعة التي أُوصِدَت بها أبواب تلك المخازن، وحين عاد إلى مكتبه في مديرية الشرطة، كان يشعر بأنّه أزاح ثقلاً كبيراً عن كاهله، وكتب في ساعَتَيْن ونصف ما كان رواه لنظيره في الدرك خلال خمس دقائق.

وهكذا استمع كولونيل الدرك في طريق العودة إلى المدينة من عريفه إلى كل ما كان ضرورياً لجعل الحادث معقّداً أكثر ممّا كان يأمله زميله مدير الشرطة.

وبرغم أنه كان يوم الأحد وعيد القدّيس يوسف النّجّار، فقد وصلت إلى مديرية الشرطة وإلى قيادة الدرك المعلومات الشّخصيّة جميعها، والخاصّة بالأملاك، وعدداً آخر من المعلومات السّرّيّة الهامّة وغيرها. المعلومات ذاتها، أو بتحويرات طفيفة، وصلت إلى الطّرفَيْن من الأُمناء السّرّيّيْن والوشاة، وهو ما يعني أنه لو عمل الطرفان بتنسيقٍ فيما بينهما، لوفّرا على نفسَيْهما جهداً كبيراً، وربّما كان بإمكانهما بذل ذلك الجهد المُضاع في البحث عن معلومات أخرى. لكنّنا نُضيِّع الوقت فحسب حين نُطالبُ بما يبدو مستحيلاً، فَمَنْ يتوخّى ذلك التعاون، هو كَمَنْ يسعى إلى توليد التعاون بين من يُشيّد مبنىً ما، وآخر يزرعه بالديناميت ليهدمه ، (مع الأخذ في الاعتبار بأنْ لا أحد من الطرفَيْن يرتضي لنفسه بأن يُقَرَنَ اسمه مع مَنْ يهدم).

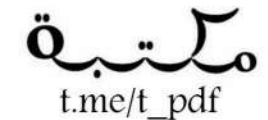
وأبرزت المعلومات الواردة بأنّ الضّحيّة: جورجو روتشيلا من بلدية مونتيروسّو، ووُلد في مونتيروسّو بالذات في114يناير 1923، وهو دبلوماسي متقاعد. عمل قنصلاً في عدد من العواصم والمُدُن الأوروبية، وتوقّف ليُقيم في أدنبرة، حيث انفصل عن زوجته، وكان

يعيش برفقة ابنه البالغ عشرين عاماً. وكانت عودته هذه إلى إيطاليا، بعد ما يربو على خمسة عشر عاماً، ليموت فيها بتلك الطريقة المفجعة في الثامن عشر من مارس 1989. كان الوحيد من بين أفراد عائلته الذي احتفظ بقَدْر لا بأس به من الثروة والممتلكات، لكنْ، دون أن يُعنى بها ودون أن يوليها ما تستحقّ من اهتمام. منزلٌ متهالك في المدينة، وتلك الفيلاّ وبعض الأراضي حولها. كان قد وصل المدينة في ذلك اليوم، 18مارس، تناول غداءه في مطعم "القناديل الثلاثة"، وطلب صحناً من السباغيتي بالحبّار وسلطة الأخطبوط. وطلب سيّارة أجرة، لتحمله إلى الفيلاّ.

طلب من السائق الانتظار ريثما يتأكّد من أن المفتاح الذي بحوزته سيفتح قفل الباب أم لا؟ وسمح له بالمغادرة بعد أن تأكّد من ذلك، طالباً منه أن يعود في الحادية عشر من صباح اليوم التالي. "أعاني من الأرق"، قال للسائق "سأعمل طوال الليل". إلّا أن سائق سيّارة الأجرة غيَّر مساره في الحادية عشر من صباح اليوم التالي عندما شاهد ذلك الحشد كله من أفراد الشرطة وسيّاراتهم، وعاد أدراجه دون أن يصل إلى الفيلاّ. فكّر في سرّه، ربمّا كان الرجل شخصاً خطيراً تبحث الشرطة عنه، فهل لديه أيّ سبب للوصول إلى هناك وتوريط نفسه في استجوابات حول مشكلةٍ لا ناقةَ له فيها ولا جمل؟

بدا رئيس الشرطة في غاية الانزعاج بعد قراءته التقرير الذي أعدّه العريف عن الحادث، لتلميحه إلى جريمة قَتْل بدلاً من تأكيده على

فرضية الانتحار. واستنبط قناعاته حول الانتحار ممّا كان التقرير يورده حول انفصال الضّحيّة عن زوجته (فيما كان هو يُفضِّل فكرة هجر الزوجة لروتشيلا)، وافترض سؤالاً حول السَبب الذي دعا الرجل إلى الاتّصال بالشرطة، لكنْ، دون أن يُقلق نفسه باستنباط جواب على ذلك التساؤل: وردّد قوله، بأن روتشيلا سعى إلى الإقدام على الانتحار أمام ناظرَي الشرطة، ليمنح فعلته شكلاً استعراضيّاً، وأن يُثير به ضجّة كبيرة؛ باختزال كان الرجل قد أصبح، برأي مدير الشرطة، ضحيّة لحالة من الهَوَس الجنوني. إلّا أنّ العريف، الذي قرأ البرقية الاستعلامية عن الرجل بأناة، أشار لمديره بأن انفصال القتيل عن الزوجة تمّ قبل اثنَتَي عشرة سنة، ومن العسير للغاية أن تبلغ أزمةٌ ما، أيّاً كانت درجة إيلامها، ذروتها بعد مرور هذا الوقت الطويل من حادث الانفصال. بلغت عصبية مدير الشرطة ذروتها عند سماع ما قاله العريف وصرخ بوجهه: "أُحذِّركَ من توكيد ملاحظة مثل هذه"، قال له "وابحث عن المفوّض، واطلب منه العودة أينما كان".



وكما كان قد أعلن السبت، لم يظهر المفوّض في دائرة الشرطة إلّا صباح الاثنَيْن. ففي الثامنة بالضبط دخل المكتب، حيث كان العريف حاضراً. كان ملفَّعاً بمعطفه الثقيل، واعتمر على رأسه قبّعته، وغطّى عنقه بلفافة صوف ثقيلة، وأدخل كفَّيْه في قفّازَيْن. كانت لفافة الصوف تُغطّي نصف وجهه.

"ما أشدّ البرد في هذه الغرفة! لا فرق ما بين برودة الخارج والداخل. أعتقد لو أنّ سرباً من الطيور مرّ من هنا، فإنها ستسقط متجمّدة بصعقة برد".

كان قد علم بنبأ الحادث من نشرة الأخبار الإذاعية ومن الصحف. قرأ تقرير العريف المُقتضب بسرعة دون إبداء ملاحظات، وخرج من الغرفة للتشاور مع مدير الشرطة.

وبدا، عندما عاد من غرفة المدير، غاضباً من العريف، وهتف به محذِّراً "فلنُحْجِم عن تأليف الروايات، رجاءً".

إلّا أنّ الرواية كانت قد ابتدأت بالفعل. فبعد ساعَتَيْن من ذلك الحوار المقتضب، كان البروفيسور كارميلو فرانتزوُ، وهو صديق قديم

للضّحيّة، جالساً في مكتب المفوّض يروي الحكاية. وقال، السبت الماضي، ودونما انتظار أو موعد سابق، رأيتُ جورجو روتشيلا يطرق بابي، ويدخل منزلي. شرح لي سبب زيارته المفاجِئة هذه، قال: إنّه تذكّر وجود صندوق خشبي قديم في المخزن تحت سقف منزله، قد يحتوي على عدد من الرسائل القديمة، من بينها واحدة من غاريبالدي(*) إلى والد جدّه، وأخرى من لويجي پيرانديلّو(**) إلى جدّه، وكان جدّه وپيرانديلّو قد تزاملا في المدرسة الثّانوية. اجتاحت الرغبة روتشيلا بالعثور على تلك الرسائل لإعادة قراءتها وتحقيقها. وقال البروفيسور بأن صديقه طلب منه مرافقته عصر ذلك اليوم إلى الفيلاّ. إلاّ أنّه، أي البروفيسور كان، للأسف الشديد، مُضطرّاً للذهاب إلى المستشفى في ذلك الوقت بالذات لإجراء غسيل الدم الدّوريّ، وكان إِرجاءُ تلك العمليّة سيُعرّضه إلى التّسمّم، وإلى وقت طويل من ملازمة الفراش، والإحجام عن الحركة. رغم أنّ فكرة العودة إلى الفيلاّ مُجدّداً بعد سنين طويلة، والمشاركة في عملية البحث، كانت تستثير رغبته كثيراً. وافترقا على وعد باللقاء في اليوم التالي، وما إن طلع النهار، ها هي محطّات الراديو تُذيع نبأ موت الصديق.

ولم يكتفِ البروفيسور بما قال، بل أضاف تفصيلات أخرى،

---

*) جوزيپي غاريبالدي، صانع وحدة إيطاليا، وقاد جنوده الألف لتلك الوحدة ابتداءً من ميناء مارسالا في جزيرة صقليّة.

**) لويجي پيرانديلّو، الكاتب والمؤلّف الصّقليّ - الإيطالي الأشهر والحائز على جائزة نوبل للآداب في عام 1936.

جوهرية. فقد تلقّى مساء السبت مكالمة هاتفية من صديقه، كان يُهاتفه من الفيلاّ، وكان أوّل ما قاله له "لمْ أعرفْ بأنهم ربطوا الفيلاّ بخطٍّ هاتفي"، ثمّ قال بأنه عثر، خلال عمليّة البحث عن الرسائل، على اللوحة الشهيرة. "أيّة لوحة؟"، سأل البروفيسور. "اللوحة التي كانت قد اختفت قبل سنين، ألا تذكر؟"، قال روتشيلا للصديق. ولم يكن البروفسور واثقاً في أنه تذكّر بالفعل اللوحة التي يتحدّث عنها صديقه، إلاّ أنه نصحه، بأن يتّصل بالشرطة، على أيّة حال.

"يا لها من قصّة معقّدة!"، قال المفوّض وقد ارتسمت على وجهه علائم القلق وعدم التصديق "اللوحة والهاتف، الشيئان اللذان اكتشفهما السّيّد روتشيلا، في لحظة حديثه معكَ"،، و أضاف بارتياب متزايد "وهل صدّقتَ أنتَ بهذه الحكاية؟".

"إذا ما كنتُ صدّقتُهُ ووثقتُ به طوال عمري، فلماذا كان عليّ أن أشكّك فيما كان يقوله لي الأوّل من أمس؟".

في غضون ذلك، كان العريف قد سحب دليل الهاتف، وبحث عن الرَّقْم، وقرأ "روتشيلا جورجو دي مونتيروسّو، ضيعة كوتونيو، 342260 ...

"الهاتف مُسجَّل في الدليل".

"شكراً" قالها المفوّض بسُخط واضح "لكنّ ما يهمّني ليس كون الرَّقْم موجوداً أم لا، بل ما يُثير اهتمامي هو أن روتشيلا كان يجهل وجود الهاتف".

"نستطيع"، ... بادر العريف ..

"تستطيع؟، افعلْ ذلك في الحال .. اذهبْ إلى دائرة الهاتف، واسحبْ المعلومات جميعها عن طلب ربط الخطّ الهاتفي، تاريخ نصبه، والفواتير التي دُفعَت حتّى الآن .. استنسخ كل شيء.. وبالأحرى الآن..."، ثمّ استدار نحو البروفيسور "لنعد إلى اللوحة المختفية: اختفت، ثمّ عادت إلى الظهور أمام ناظرَي صديقكَ، وربّما اختفت من جديد.. ألديكَ فكرة ما حول اللوحة التي تحدّث عنها صديقكَ؟.."

"وهل لديكَ أنتَ فكرة ما عنها؟"، ردّ البروفيسور على سؤال المفوّض.

"لا، أنا لا فكرة لديّ"، أجاب المفتّش "لا أفهم في اللوحات، لي زميل في روما مختصّ في ذلك، لأن في إيطاليا الكثير من اللوحات المختفية. وسنستعين بمشورته بالتأكيد، لكنْ، أخبِرْني عن تلك اللوحة المختفية، فهي برأيكَ ..."

"لستُ مُختصّاً باللوحات المختفية"،، أجاب البروفيسور.

"لكنْ، لديكَ رأي في ذلك".

"هو الرأي نفسه الذي يمكن أن يكون لديكَ أنتَ".

"يا إلهي، إنّه الوضع ذاته دائماً، حتّى مع البروفيسورات".

"وهو الوضع ذاته مع مفوّضي الشرطة"، ردّ البروفيسور بقَدْر من الحنق.

تمالك المفوّض نفسه، كان سيُودِعه زنزانة التوقيف، لو أنه كان شخصاً آخر، لكن البروفيسور فرانتزوُ مشهورٌ ومعروفٌ، ويحظى باحترام المدينة بأسرها، وتحتفظ أجيال عديدة من أبنائها بذكرى طيّبة عنه أيّام الدراسة.

"وإذاً"، قال المفوّض "أعِدْ عليّ بأكثر ما تتمكّن من الدّقّة ما قاله لكَ شخصياً صديقكَ في تلك المكالمة الهاتفية".

واجتاحت البروفيسور حالة من الغضب والعصبيّة التي جعلتْهُ يكرّر الحدث متهجّياً الكلمات حرفاً حرفاً.

"أولستَ تتناسى أو تُخفي أمراً ما؟"، قالها المفوّض بنبرة انتقامية.

"ذاكرتي حاذقة وحيّة، وليست لديّ عادة طمس حقائق".

"حسنٌ، حسنٌ"، قال المفوّض "لكني أُذكّركَ بأن عليكَ أن تُكرّر بعد قليل أمام قاضي التحقيق كلّ ما رويتَ لي".

أطلق البروفيسور ابتسامة فيها مزيجٌ من الرثاء لحالة الشخص الذي يجلس أمامه، ومن الاستياء منه، لكن وصول مدير الشرطة، وكان واحداً من تلاميذ البروفيسور، وضع حدّاً لهذه المناوشة.

"بروفيسور، أنتَ هنا؟".

"ولديه رواية مثيرة للاهتمام"، قال المفوّض.

إلّا أنّ عودة العريف إلى المكان أعاد الاضطراب إلى الأجواء.

"نعم، طلب خطّ الهاتف موجود، وقد قُدِّم قبل ثلاث سنوات، وبتوقيع مُزوّر .. وقد تأكّد الدرك من تزوير التوقيع".

"اللعنة"، صرخ المدير موجِّهاً غضبه إلى الدرك.

بفضل شهادة البروفيسور نُحّيت جانباً فرضية الانتحار التي كان مدير الشرطة يلوّح بها حتّى تلك اللحظة، ورفضها كولونيل الدرك منذ اللحظة الأولى. إلّا أنّ كلَيْهما دُعيا، من قبَل مسؤولِيهما المباشرين، إلى التعاون معاً وتبادل المعلومات خلال التحقيق في الحادث، وقد التقيا بالفعل، وبحنق واضح، أبداه كلاهما إزاء الآخر، تبادلا بشكل سطحي وجهَتَي النظر حول الموقف، لكنْ دون الذهاب أبعدَ من التأكيد على عُسر التفاهم فيما بينهما.

ولنُعِدْ تفصيل الأحداث: السّيّد روتشيلا، مدفوعاً بشغف البحث عن رسالتَي غاريبالدي وپيرانديلّو إلى والد جدّه وجدّه، عاد بشكل مفاجِئ إلى صقليّة، بعد سنوات طويلة من الغياب عنها. ذهب صوب منزل صديقه، وتناول غداءه في المدينة، واستأجر غرفة في أحد فنادقها، وبما أنّ مفتاح الفيلّا كان في جيبه. استقلّ سيارة أجرة، حملتْهُ إلى هناك. حيث حين اكتشف بأن مفاتيح الفيلّا ما تزال صالحة، طلب من السائق أن يتركه هناك، ليبدأ عملية البحث.

لكنْ، ما الذي حدث منذ تلك اللحظة، وفيما بعد؟

وجد في المنزل خطّاً هاتفياً صالحاً للعمل: إلّا أنّه، وكما روى البروفيسور، لم يُبْدِ اندهاشاً كبيراً صوب هذه الجزئية، وهو ما قد يعني بأنه كان يعرف هويّة مَنْ تولّى مهمّة نصب الخطّ الهاتفي، إلّا أن ما أدهشه، أو ربمّا أثار قلقه وخوفه، هو عثوره على تلك اللوحة في المخزن ما تحت السقف، وحيث ذهب للبحث عن الرسائل،. لذا جاءت مكالمته الهاتفية إلى صديقه البروفيسور أوّلاً، وإلى الشرطة فيما بعد. وبما أنّ الشرطة تأخّرت في الوصول، فقد جلس إلى الطاولة، وبدأ بكتابة: "لقد وجدتُ"، ولأنه كان مرتعباً ممّا يحدث، فقد ذهب، واخرج مسدّس (الماوزر) القديم. وربمّا سمع في تلك اللحظة بالذات طَرْقاً على الباب. "وأخيراً جاءت الشرطة". ذهب ليفتح الباب: غير أنّ القادم لم يكن إلّا مَنْ قَتَله.

معطياتٌ للبحث والتعميق: هل نُصب خطّ الهاتف دون علمه فعلاً؟

هل كانت عودته نتاجاً للرغبة الجامحة للبحث عن رسائل غاريبالدي وپيرانديلّو؟

وهل فعلاً شاهد تلك اللوحة بالذات؟ أم أنه شاهد لوحة، لم يكن يتذكّرها تعود ملكيّتها إلى العائلة، وقد برزت أمامه من بين بقايا عائلية كثيرة مكدّسة هناك في مخزن السقف؟

كانت هناك حاجة ماسّة لتحرّياتٍ أخرى، أكثر دقّة داخل الفيلّا. لكنْ، وبينما كان الجميع بصدد إقرار الخطوات التالية وقع حدثٌ قلبَ الأمور رأساً على عقب، وأصابها باضطراب كبير.

قطار محليّ، يزدحم في تلك الساعة (الثانية ما بعد الظهر) بالطَّلَبَة العائدين إلى منازلهم من المدارس، اضطُرّ إلى التّوقّف عند إشارة المرور التي تسبق الوصول إلى محطّة مونتيروسّو. كانت الإشارة حمراء، وتفرض التّوقّف. انتظر سائق القطار تغيُّر لون الإشارة إلى الأخضر، وطال الانتظار أكثر من نصف ساعة.

ولأنّ سكّة القطار توازي الطريق العامّ، فقد انتشر الطَّلَبَة والعمّال، الذين كانوا على متن ذلك القطار، في الدروب القريبة والموازية، وهو يشتمون مراقب المحطّة الذي نسيَ تغيير إشارة المرور، أو أنّه غطّ في النوم.

ما من سيّارات كثيرة تعبر ذلك الشارع في تلك الساعة، وتوقّفت سيّارة من نوع "ڤولڤو" تساءل صاحبها عمّا يحدث. فطلب منه سائق القطار أنْ يتفضّل عليه بالصعود إلى محطّة مونتيروسّو، ليُوقِظ مراقب المحطّة من نومه.

صعدت سيّارة الـ "ڤولڤو" صوب المحطّة، وقد شاهدها الآخرون، توقّفت عند المحطّة، ومن ثمّ غابت عن الأنظار على عجل، سائرةً صوب الجانب النازل من الشارع.

وبما أنّ الإشارة بقيت حمراء، فقد قرّر سائق القطار وعدد من الرّكّاب الصعود إلى المحطّة مشياً على الأقدام - لما يربو على خمسمائة متر - واكتشفوا ما هو مرعب حقَّاً، فقد كان مراقب

المحطّة ومساعده يغطّان في النوم الأعمق، فقد كان نومهما أبدياً، لأنّهما وُجِدا قتيلَيْن.

ودونما أيّ تمييز، هاتَفَ سائق القطار الشرطة والدرك معاً، وبدأت القوّتان بعملية البحث عن صاحب سيّارة "الڤولڤو". لم يكن البحث عسيراً، إذْ لمْ تكن في المحافظة بأسرها أكثر من ثلاثين سيّارة "ڤولڤو". وما إنْ علمَ صاحب تلك السيّارة من نشرات الأخبار الإذاعية بأن الشرطة تتحرّى عنه، توجّه، دون رغبة كبيرة منه وبقَدْر من القلق، إلى دائرة الشرطة. وكان مثوله أمام رجال الشرطة طوعياً، كما ثُبِّتَ في مقدّمة المحضر، "حضر من تلقاء نفسه".

ثُبِّتتْ المعلومات الخاصّة باسمه ولقبه وعمره ومحلّ ولادته والإقامة والوظيفة، وما إذا كانت لديه سوابق أو متاعب مع العدالة.

"ولا حتّى غرامة مرور واحدة"، أفاد الرجل، إلّا أنّ التصريح بالوظيفة والعمل الذي يمارسه منح المفوّض رغبة جامحة وعدوانية استثنائية، في أن يبدأ معه تحقيقاً قاسياً. فقد كان الرجل يعمل مندوباً لشركات بيع الأدوية.

" أنتَ تملك سيّارة "ڤولڤو"؟

"بالتأكيد".

"لا تقلْ لي بالتأكيد، عندما تُجيب على أسئلتي ... سيّارتكَ غالية الثمن شيئاً ما".

أومأ الرجل برأسه موافقاً.

"هل تضمّ الأدوية التي تُتاجر بها الهيروين والكوكائين والأفيون؟".

"اسمعني"، قال الرجل بطريقة حاول بها ضبط غضبه ومخاوفه "لقد حضرتُ بطوع إرادتي، حتّى أروي فقط ما شاهدتُ بأُمّ عيني عصر أمس".

"ارِو لي إذاً"، قال المفوّض بتهكّم.

"لقد صعدتُ إلى المحطّة، كما طلب منّي سائق القطار. نقرتُ على زجاج النافذة، ففتح لي مراقب المحطّة".

"مَن الذي فتح لكَ؟".

"مراقب المحطّة، على ما أظنّ".

"وإذاً، فأنتَ لم تكن تعرف مراقب المحطّة شخصياً؟".

"كلّا، كما قلتُ لكَ، فقد طلب منّي سائق القطار أن أتوجّه إليه. وقد تمكّنتُ من إلقاء نظرة داخل الغرفة، وكان هناك شخصان آخران، وكانا يلفّان سجّادة .. ورحلتُ بعد ذلك".

"لكنكَ أخذتَ الجانب الآخر من الطريق"، قال المفوّض "ومع ذلك، لم يشاهدكَ أحد وأنتَ تنزل الطريق .. وإذاً، فقد كانا يلفّان سجّادة".

"اللوحة!" تسلّلت الكلمة من فم العريف، فصعقه المفوّض بنظرة حارقة.

"أشكركَ، كنتُ سأصل إلى هذه النتيجة دون عونٍ منكَ".

"أعتذر، سيّدي، أنا واثق من أنّكَ كنتَ ستصل إلى ذلك"، قال العريف "لن أتجاسر، بالتأكيد ..."، وبقَدْر من السذاجة أضاف مُضطرباً ومتلعثماً "فأنتَ خرّيج جامعي".

ولأن الجملة الأخيرة بدَتْ ساخرة، فقد أشعلتْ غضب المفوّض، لكنْ، ليس على العريف، بل على صاحب القولقو "أنا آسف، لكنْ، عليّ أن أتحفّظ عليكَ هنا على ذمّة التحقيق: علينا إجراء تحرّيات أدقّ".

وُلد العريف آنتونيو لاغاندارا في قرية زراعيّة على مقربة من المدينة. إلّا أنّه كان يعدّ المدينة التي يعمل فيها بمثابة مدينته الحقيقيّة، وأنّه، هو نفسه، جزءٌ منها. كان والده فلاحاً، ارتفع شأنه، لأنه برع في تطعيم الأشجار وتشذيبها، وصار واحداً من النادرين الذين يُجيدون تلك المهنة. تُوفيَّ إثر سقوطه من شجرة كرز عالية بينما كان يحاول تشذيبها من الأغصان الجافّة، وكان آنتونيو حينها في السنة الأخيرة في كلّيّة الاقتصاد والتجارة، ولأنّه فَقَدَ السند الاقتصادي للعائلة، فقد اضطُرّ إلى ترك مقاعد الدراسة، وبعد بحث مُضنٍ وغير ذي جدوى عن العمل، تطوّع في سلك الشرطة، ورُفّع خلال خمس سنين إلى رتبة ضابط صفّ. كان يُحبّ عمله، وكان قد سجّل في الجامعة مُجدّداً لتحقيق حلمه بالحصول على الشهادة الجامعيّة في القانون: ولهذا السبب بالذات، شعر المفوّض بنبرة السخرية في جملته الأخيرة. وكان غضبه ما يزال متواصلاً عندما عاد العريف إلى الغرفة بعد إيداع سائق "الفولفو" زنزانة التوقيف. وبينما كان صراخ هذا الأخير الاحتجاجي متواصلاً ومسموعاً في دائرة الشرطة بأسرها، فقد واجه المفوّضُ العريفَ قائلاً "أنا خرّيج جامعي، هاه!؟، لم أفهم بعدُ، حقيقةً، ما إذا كنتَ

شخصاً طيّب النوايا، أم أنكَ تتظاهر بذلك فحسب ... خرّيجٌ جامعي! في بلد يتخرّج من جامعاتها حتّى حرّاس أبواب العمارات والنُّدُل، أو حتّى كنّاسو الشوارع".

"عذراً، سيّدي"، قال العريف بصدق، لكنْ، بنبرة لم تخلُ من تحدٍّ ما.

"لندع هذه الأمور جانباً ... أنا ذاهب إلى المدير: بعد ربع ساعة، أَحْضِرْ ذلك الرجل، أعني سائق الـ "ڤولڤو".

كان كولونيل الدرك جالساً في غرفة المدير، فأبلغهما المفوّض بالتفاصيل، وبعد ذلك دخل العريف وهو يُرافق الرجل، فبادره مدير الشرطة قائلاً "وإذاً، فقد وجدتَ في غرفة مراقب المحطّة ثلاثة رجال كانوا يلفّون سجّادة. هل كانت داخل السّجّادة جثّة؟".

"جثّة؟ لا، بالتأكيد".

"وكم كان طول السّجّادة؟".

"لا أعلم، ربمّا متراً ونصف".

"وكيف بمقدوركَ التأكيد على أنّها كانت سجّادة؟"، سأل كولونيل الدرك.

"أنا لا أؤكّد أيّ شيء: لقد بدا لي ذلك الشيء كما لو أنّه سجّادة".

"صفْها لنا".

"كانوا يلفّونها، فبدت لي مثل خلفية سجّادة. قماش خشن مُضطرب الشكل ...".

"لكن خلفية السجاجيد ليست كما تصف. أوَلَيْسَ ممكناً بأنهم كانوا يلفّون قماش لوحة مرسومة؟".

"ذلك ممكن"، قال الرجل.

"لننتقل إلى الأمر التالي ... الرجال، أنتَ قلتَ بأنهم كانوا ثلاثة".

"نعم، ثلاثة".

عرض مدير الشرطة عليه صورَتينْ: "هاك اثنَينْ منهما، هل تتعرّف عليهما؟".

شعر الرجل بأنّ المحقّقين يُحيكون له كميناً، فلعنهم في سرّه. "وكيف لي أن أعرف هذَيْن الشخصَيْن؟ لا أظنُّ أنّني رأيتُ هذَيْن الشخصَيْن قطّ في حياتي".

"هل تعرفهما؟ إنّهما مراقب المحطّة ومساعده: وهما الشخصان اللذان عُثر عليهما قتيلَيْن في مركز المحطّة".

"لكنهما ليسا الشخصَان اللّذَان رأيتُهما هناك!".

"إلّا أنّكَ أَفَدْتَ بأنكَ تحدّثتَ مع مراقب المحطّة، ورأيتَهُ".

"تحدّثتُ مع شخص بدا لي وكأنّه مراقب المحطّة".

"أنا آسف"، قال مدير الشرطة "أنا مُضطرّ إلى التّحفّظ عليكَ هنا وقتاً أطول".

وعاد الرجل سيِّئ الطالع إلى الصراخ والاحتجاج من جديد.

التقى مدير الشرطة وكولونيل الدرك مع قاضي التحقيق، وعرضا عليه نتائج تحقيقاتهم. اتّخذ القاضي هيئة الجدّيّة والتفكير العميق، وقال "أتعلمان بماذا أفكّر؟ برغم كون الأمر مصادفة بحتة، أنا أعتقد بأن سائق "الڤولڤو" فَقَدَ عقله أمام تلك اللوحة الفنّيّة لمجرّد دخوله إلى مبنى المحطّة، فسارع إلى التّخلّص من الرجلَيْن، وحملها معه".

وتبادل مدير الشرطة وكولونيل الدرك نظرة متهكّمة وحائرة في آنٍ. "إنّه شخصية مثيرة للتساؤلات، رجل "الڤولڤو" هذا، وقد أثار انتباهي في الحال، وقلّما تُخطئ انطباعاتي. أبْقِياهُ رهن التوقيف لكلّ الوقت الذي أراه كافياً". وطلب منهما المغادرة، لأنه سيلتقي البروفيسور فرانتزوُ بعد ذلك بقليل.

عندما خرجا من غرفة القاضي هتف مدير الشرطة "يا للهول!"، وقال الكولونيل بدوره "إنّ لديه عقليّة شيطانيّة ورهيبة".

في غضون ذلك نهض القاضي من وراء مكتبه للترحيب بالبروفيسور العجوز. "يا لفرحتي وسروري الكبيرَيْن للقائكَ بعد سنين طويلة!".

"نعم، كثيرةٌ هي السنين، وأشعر بثقلها بالفعل"، ردّ عليه البروفيسور.

"على الإطلاق، لم يتغيّر أيّ شيء في مَرآكَ".

"أمّا أنتَ، فقد بدت على حضرتكَ سمات التّغيّر"، قال البروفيسور بصراحته المعهودة.

"نعم، إنه هذا العمل اللعين، هو السبب.. لكنْ، لماذا تستخدم صيغة حضرتكَ خلال الحديث معي؟".

"بالضبط كما كنتُ أفعل في السابق"، ردّ البروفيسور.

" لكن مضى وقت طويل، ولست بحاجةٍ إلى ذلك".

"كلاّ، لن أُغيِّر ما اعتدتُ عليه".

"لكنْ، هل تتذكّرني، يا بروفيسور؟".

"بالطبع، أتذكّركَ".

"هل تسمح لي بسؤال شخصي ... قبل أن أتوجّه إليكَ بأسئلة ذات طابع آخر؟ ... كنتَ في درس الإنشاء باللغة الإيطالية تمنحني درجة ثلاثة، لأنني كنتُ أنقلُ النصوص عن زملاء آخرين. لكنكَ منحتَني، في إحدى المرّات خمس درجات: لماذا؟".

"لأنكَ في تلك المرّة نقلتَ عن زميل لكَ أكثر ذكاءً منكَ".

ضحك القاضي ملء شدقَيْه. "اللغة الإيطالية: كنتُ ضعيفاً في اللغة الإيطالية، ولكنْ، كما ترى يا بروفيسور، فليس الأمر جوهرياً، ولم يتسبّب ذلك في مشكلة كبيرة: فها أنا هنا وكيل نيابة عامّ ...".

"لا تكمن أهمّيّة اللغة الإيطالية في مجرّد استخدامها في الحديث، بل إنّ التفكير عبر هذه اللغة هو الأساس"، قال البروفيسور "بإمكانكَ أن تحتلّ مواقع أعلى حتّى بقدرةٍ أقلّ في اللغة الإيطالية".

كانت الجملة قاسية، جمّدت القاضي لبرهة في مكانه، عبرَ بعدها إلى تحقيق قاسٍ.

وصل نجل الضّحيّة من أدنبرة، ووصلت زوجته من شتوتغارت. وصلا في اليوم ذاته. وكان اللقاء بين الابن ووالدته، وبحضور المحقّقين، لقاءً مثيراً للأسى والأسف. وكما توضّحَ في الحال، فقد حضرت الزوجة لمحاولة اقتناص ما بإمكانها اقتناصه من الميراث، فيما بدا الابن وكأنّه حضر للحيلولة دون أن تتمكّن الأُمّ من تحقيق غرضها، لكن السبب الأساسي لحضوره هو معرفة كيف، ولماذا اغتيل والده، وبالدرجة الأساس، معرفة اليد التي اغتالتْهُ.

دار اللقاء الأوّل بينهما في غرفة مدير الشرطة. لم يُلقِ أحدهما التّحيّة على الآخر، واقتصر الابن على جملة في غاية الجفاف "عودي إلى حيث أتيتِ منه. لا شيء لديكِ هنا".

"هذا ما يُخيّلُ لكَ أنتَ".

"ليس هو ما يُخيّلُ لي أنا، بل ما تُثبّته الوثائق جميعها التي سجّلها والدي قبل بضع سنوات".

" لستُ واثقةَ ممّا إذا كانت تلك الأوراق صالحة وذات قيمة، أو

غير قابلة للدحض قانونياً ... فلنتّفق فيما بيننا، ولنَبِعْ كل شيء، وليعُدْ كلّ منّا إلى حيث أتى منه".

"لن أبيع أيّ شيء، وربّما سأمكث هنا. لقد عشتُ هنا قبل سنين، ومكثتُ فترة لا بأس بها عندما كان جدّي وجدّتي على قيد الحياة. أحمل من تلك الفترة ذكرى جميلة للغاية ... نعم، ربّما سأمكث هنا ... لقد فكّرنا، أنا وأبي بذلك طويلاً ، كنّا نفكّر بالعودة والاستقرار هنا".

"مع أبيكَ!"، قالت المرأة بسخرية مُزدرية.

"هل تسعَين إلى الادّعاء بأنه لم يكن والدي؟ ... اسمعيني جيّداً: ليس بالإمكان اختيار الأُمّهات، وأنا بالتأكيد لم أكن لأصطفيكِ أُمّاً لي ... وبالمقابل لم تكوني لتختاريني ابناً لكِ ... لكنْ، بالإمكان اختيار الآباء: وأنا اخترتُ جورجو، وأحببتُهُ كثيراً، واليوم أبكي رحيله، فقد كان أبي. أنتِ تمنحين قيمة كبيرة لمسألة أنّكِ اضطجعتِ في سريرٍ مع هذا أو ذاك".

انطبعت آثار كفّ المرأة بأصابعها المكتظّة بالخواتم، على خدّ الشّابّ. فاستدار جانباً مُحدِّقاً بالرفوف التي تحمل الكُتُب، وكأنها كُتُب مثيرة للاهتمام.

قال مدير الشرطة: "هذه أمور خاصّة بكما. ما أرغب في معرفته منكِ، سيّدتي، هو ما إذا كنتِ توصّلتِ إلى قناعة أو شكٍّ ما حول مقتل زوجكِ".

هزّت السّيّدة كتفها نافيةً. "كان صقليّاً" قالت "والصّقليّون باتوا يقتلون بعضهم البعض منذ سنوات، مَنْ يدري ما هو السبب في قَتْل بعضهم البعض؟".

"يا له من حُكم عسيرٍ على النقض!"، قال الابن ساخراً، وعاد إلى الجلوس أمام طاولة مدير الشرطة.

"وأنتَ؟ ما رأيكَ؟ وماذا تعرف؟"، سأل مدير الشرطة الشّابّ.

"لا شيء لديّ حول السبب الذي قُتِل من أجله والدي، وآمل أن أعرف ذلك من حضرتكم في أسرع وقت ... لكنّ بإمكاني أن أُضيف ..."، وروى عن قرار الأب بالعودة إلى صقليّة للعثور على رسالتي غاريبالدي و پيرانديلّو، وتحدّث عن أسفه لعدم استطاعته مرافقته إلى صقليّة، وروى عن المكالمة الهاتفية التي تلقّاها من الضّحيّة، والتي روى له فيها عن رحلته المريحة. ولا شيء غير ذلك.

"أخبِرْني عن ممتلكاتكم هنا، هل كانت مهجورة ومتروكة بالفعل؟".

"نعم، و لا، كان أبي يكتب بين الحين والآخر إلى شخص هنا، وأعتقد أنّه راهب مقيم هنا، ليعرف منه عن حال الممتلكات".

"وهل كان الراهب هذا مُكلَّفاً بصيانة تلك الممتلكات؟".

"لا أعتقد بأنّه كان مُكلَّفاً بذلك بالتحديد، على ما أعتقد".

"هل كان والدكَ يبعث إليه أموالاً؟".

"لا أعتقد".

"وهل كان هذا الراهبُ يُجيب عن رسائل والدكَ؟".

"نعم، كان يُخبره دائماً، بأن المباني، على رغم الهجر، ما تزال محافظة على متانتها بشكل لا بأس به".

"وهل كان الراهب يحتفظ بمفاتيح الفيلّا ومنزلكم في المدينة؟".

"أجهل ذلك".

"وهل تذكر اسم هذا الراهب؟".

"كريكّو، على ما أعتقد ... كان اسمه الأب كريكّو. لستُ واثقاً من ذلك بالكامل".

الأب كريكّو كان رجلاً وسيماً وذا مهابة بردائه الكنسي الطويل - أكّد بأنه لم يمتلك المفاتيح أبداً. كان يُراقب المنزل في المدينة والفيلّا من الخارج، وكانت أخباره تقتصر على التّأكّد من بقائهما قائمَيْن دون شقوق واضحة، والتّأكّد من كونهما بمَنأى من تآكلات وتصدعات واضحة للعيان.

مفوّض الشرطة هو الذي كان يقوم بمهمّة التحقيق مع الراهب - وكان في غاية الاحترام والتبجيل له - وكان العريف يُسجِّل المحضر. وبدأ المفوّض: "أنتَ من بين القسس القلائل الذين يواصلون ارتداء جبّة الرهبان. وهذا أمر، لا أعلم سببه، يملأُ قلبي ارتياحاً".

"أنا راهب من الطراز القديم، وأنتَ كاثوليكي من الطراز القديم، وهو ما يُسجَّل لصالحنا، وأقول ذلك بقَدْر كبير من الزهو".

"وإذاً، كراهب وكإنسان واعٍ وكصديق للضّحيّة، أسأل ما هو رأيكَ في هذه الحالة؟".

"على الرغم من الرواية التي تُشير إليها حول الحادث، أعترف لكَ بأنني عاجزٌ عن أن أمحو من ذهني فرضية الانتحار. لم يكن جورجو رجلاً سعيد القلب".

"آه، نعم، تلك الزوجة وذلك الابن، والذي لم يكن ابناً وُلد من صُلبه ...".

"لكنْ، يبدو بأن شرطة التّحرّيات ...".

"نعم، لقد عُثر على بصمات القتيل على المسدّس، لكنْ، فقط في المواقع التي يُفترَض أنه أراح فيها أصابعه على المسدّس، بَدَتْ تلك البصمات وكأن مَنْ أمسك بالسلاح ارتدى قُفّازاً ... ومع كبير احترامي لشرطة التّحرّيات الجنائية، فإنّ ثقتي ضعيفة بالنتائج التي توصّلوا إليها بصدد هذه الحالة".

ولم يكن للعريف أن يتراجع أمام خصلته في الرغبة بالتّدخّل، فقال "ثقتي، أنا أيضاً، بفرضية الانتحار ضعيفة جدّاً، أو بالأحرى، هي معدومة بالكامل. ليس بالإمكان القبول بفكرة أنّ شخصاً ما أمسك بالمسدّس، وحرّكه ما بين يَدَيْه، يعمد إلى ارتداء القفّاز في لحظة الانتحار بالذات، وبأنه امتلك الوقت، بعد أنْ أطلقَ النار على رأسه، لينزع القفّاز، ويُخفيه عن الأنظار بشكل كامل ... هذا ما يعجز عن الإتيان به حتّى أمهر الحواة".

"بدأتَ تتسلّى، هاه؟! واصِلْ تسليتكَ، واصِلْ"، قالها المفوّض بنبرة حانقة.

قرّرت السلطتان القضائية والجنائية إجراء تحرّ أوسع وأكثر دقّة في الفيلاّ برفقة زوجة القتيل وابنه. وتوجّه المفوّض والعريف إلى هناك، يرافقهما عدد من رجال الشرطة. واعتذر الأب كريكّو عن تلبية الدعوة بالذهاب إلى الفيلاّ: فقد كانت الانفعالات بالنسبة إليه قوية وعميقة، ولم يكن حضوره هناك مفيداً.

وتوجّه العريف إلى منزل البروفيسور لمرافقته إلى الفيلاّ. وسارا مسافة من الطريق وحدهما، وكان العريف فرحاً بتلك الرفقة، إذْ أُتيحت له فرصة الحديث مع شخصية شهيرة، فَطِنة ومثقّفة، وأثارت الرحلة لديه حالة من النشوة. وطوال الطريق واصل البروفيسور الحديث عن مصاعبه ومتاعبه الصحيّة، تاركاً له جملة أثيرة (لم يتّفق العريف معها بسبب سني عمره الشّابّ) تقول بأنه ليس صحيحاً ما يُقال عن أنّ الأمل هو آخر ما يموت لدى الإنسان، فسني الشيخوخة تُميت حتّى آخر الآمال(*).

كان البروفيسور يعرف المكان جيّداً، فقد أمضى فيه ساعات

---

*) مثل شعبي إيطالي يقول: "الأمل هو آخر ما يموت لدى الإنسان"، ويُكرّر دائماً في لحظات اليأس لرفع المعنويات.

طويلة من طفولته وشبابه برفقة صديقه. ولمجرّد عبورهما سور الفيلّا الخارجي أومأ إلى المخازن قائلاً بأنها كانت في السابق إسطبلاً ملحقاً بالفيلّا. لكن العريف اندهش لمرآى المخازن مفتوحة وقد اختفت عنها السلاسل والأقفال الجديدة. توقّع بأن رجال الدرك هم الذين أزالوا السلاسل والأقفال، روى ذلك للمفوّض، واتّصلا بهم، واكتشفا بأن الدرك يجهلون أي شيء عن الأقفال والسلاسل.

وتحرّى العريف بعصبية واضحة داخل أحد المخازن، وتناهت إلى خياشيمه رائحة السّكّر المحروق ورائحة أوراق الكالبتوس المُختّر في الكحول: وبتحصيل الحاصل كانت تلك الروائح مجهولة الطبيعة، وسأل المفوّضَ:

"هل تشمّ هده الرائحة، سيّدي؟".

"لا أشمُّ أيّ شيء، فأنا مصاب بزُكام قوي".

"ينبغي علينا دعوة خبير، أو كيمياوي، إضافة إلى الكلاب البوليسية".

"أنتَ الكلب الأفضل على الإطلاق"، قال المفوّض، "وعلى أيّة حال، سندعو الكيمياوي والكلاب البوليسية".

كان الآخرون ينتظرون أمام باب الفيلّا، فقد كانت المفاتيح بحوزة

المفوّض، وقد ناولها إلى العريف قائلاً "افتح الباب، وقُدِ المسيرة: هذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها هذا المنزل".

توزّع الجميع في المنزل، كان رجال الشرطة يتحرّكون بتوتّر كبير، وكأنهم سيفاجئونَ لصّاً في داخله. كان الابن الشّابّ يُتلفّت حوله وعيناه تلمعان بدموع التأثر، فيما كانت مشاعر الزوجة فاترة، وحالتها أقرب للضجر.

لم يكن في الطابق الأرضي ما يمكن أن يثير دهشة رجال الشرطة، فكل شيء تمت مشاهدته وتثبِّيته من قبل. ثمّ دخل الحاضرون إلى المطبخ. كان الباب الذي يقود إلى مخزنِ ما تحت السقف مفتوحاً بشكل يثير الريبة. توقّف الجميع أمامه، وبعد قليل بادر المفوّض بالصعود. كان يصعد درجات السّلّم الخشبي بخطوٍ ثابت ورشيق. وحين وصل إلى الأعلى، وأنار المكان بضوء المصباح اليدوي، تبعه الآخرون. كان العريف يتحرّك بحذر وبطء أكبر ما بين الأثاث والأشياء المكوّمة هناك، وكان يُحرِّك ناظرَيْه في الاتّجاهات جميعها، وعلى الجدران.

"عمّاذا تبحث؟"، سأله المفوّض.

"أبحث عن زرّ التّيّار الكهربائي".

"آه، نعم، أنتَ كالعادة عاجز حتى عن العثور على زرّ التّيّار

الكهربائي. لكنْ، ليس الأمر صعباً إلى هذه الدرجة. فالزّرّ موجود خلف التمثال النّصفّي للقدّيس إينياتسيوس".

"لكنّي لا أراه"، قال ذلك إلى المفوّض.

"إنها الفراسة"، قال المفوّض مازحاً، وأضاف "حذار أن تقول لي بأنني عثرتُ على مفتاح الضوء، فقط، لأنني أحمل شهادة جامعية"، وكانت عيناه تُحدِّقان بمفتاح الضوء.

"لا، لن أتجرّأ على قول ذلك"، أجاب العريف بقَدْر من الأسى.

كان الصندوق الخشبي مغطّى بطبقة كثيفة من الغبار الراكد منذ وقت طويل، باستثناء شريط فارغ من الغبار نتجَ عن وجود شيءٍ ما كان قد تُرك على سطح الصندوق لوقت طويل. "قماش اللوحة الملفوفة": فكّر العريف، وقال في سرّه. لقد شاهد المسكين روتشيلا تلك اللفافة قبل أن يفتح الصندوق الخشبي، ليبحث عن الرسالَتَيْن: كانتا داخل ذلك الصندوق مربوطَتَيْن في رزمة الرسائل الأخرى: رسالة غاريبالدي ورسالة پيرانديلّو. وكان البروفيسور شاهدهما مرّةً قبل سنوات كثيرة. وقرأ رسالة پيرانديلّو، وتوقّف عند بعضٍ من جملها: كان پيرانديلّو يعرف في الثامنة عشر من العمر، ما كان سيكتب إلى ما بعد عمر السّتّين.

خلال رحلة العودة من الفيلاّ قال البروفيسور للعريف: "سأكون سعيداً إذا ما تمكّنتَ من قراءة رسالة پيرانديلّو هذه بالكامل".

"لا أعتقد بأن هناك صعوبة للحصول على موافقة لإيصالها إليكم". إلّا أنّ العريف كان مكتئباً، قلقاً وعَصبيّ المزاج، كان خاطره منشغلاً في الوقت ذاته بأمرٍ آخر. شعر بالحاجة إلى التنفيس عمّا يجول في خاطره، وأن يُسرَّ بشيء ما إلى البروفيسور. وعلى حين

غِرَّة، أوقف السّيّارة، وغرق، بعصبية، في بكاء حادّ. "نحن نعمل مع بعضنا منذ ثلاث سنوات. ونجلس في المكتب ذاته".

"أُدرك ذلك، أفهمكَ"، قال البروفيسور. "زرّ التّيّار الكهربائي؟".

"نعم ... بالضبط، زرّ التّيّار الكهربائي ... قال لي بأنه لم يدخل تلك الفيلاّ أبداً: لقد سمعتَه أنتَ أيضاً ... لقد أشعلتُ علبة كبريت بأكملها للبحث عن زرّ التّيّار الكهربائي، ثمّ جاء الآخرون، ليفتّشوا عنه بمساعدة المصابيح المحمولة ... أمّا هو، فقد عثر على الزّرّ في الحال، بثقة كاملة".

"لقد ارتكب خطأً فظيعاً"، قال البروفيسور.

"لكنْ، كيف فعلها؟ ما الذي حدث له في تلك اللحظة؟".

"ربّما وقع في حالة انفصام وقتي. فقد تحوّل في تلك اللحظة إلى رجل الشرطة الذي يتحرّى عن نفسه"، وبغموض مَنْ يحادث نفسه، أضاف البروفيسور قوله "پيرانديلّو!"(*).

"أودّ أن أروي لكم الآن كل شيء، ابتداءً من حادثة الزّرّ الكهربائي، فقد بدأت بتركيب تفاصيل الأحداث بالاعتماد على منطق الرّياضيّات".

"المنطق الرّياضيّ ..."، ابتسم البروفيسور "لكنْ، هل فكّكتَ عُقد بعض الشكوك؟".

---

*) إشارة إلى ما هو معروف عن الكاتب الصّقليّ، والحائز على نوبل للآداب، لويجي پيرانديلّو في قدرته على سَبْر أغوار النّفْس البشرية في أعماله.

"لهذا السبب أستعين بكم لمساعدتي".

"سأفعل ذلك بقَدْر مُستطاعي ... لكنْ، تعال معي لنصعد إلى منزلي: فهناك لن يُزعجنا أحد".

ودار بين الرجلَيْن حوار دام لساعات، وبعد التّوصّل إلى خلاصة في أن سرقة أولئك المجرمين لتلك اللّوحة كان سلوكاً خالياً من الحذر والحيطة، ولم يكن إلّا نشاطاً جانبياً لما كانوا يفعلونه في ذلك المكان، وربّما كان أيضاً بمثابة نزقٍ عارض. فقد كان ما يفعلونه هناك مختلفاً بالمُطلق. لذا فإن المسكين روتشيلا قُتل، لأنه وصل بشكل مفاجِئ، وغير مُنتظَر.

وقبل مغادرة المنزل، سأل البروفيسور العريفَ: "هل تنوي ...؟".

"لا أعلم"، أجاب العريف "لا أعلم"، وكان ساهماً منقلب المزاج.

في اليوم التالي، وصل المفوّض إلى المكتب في الساعة المعتادة ذاتها، وكان يفتعل روحية بشوشة وحماسةً مفرطة. نزع قبّعته، وخلع معطفه والقفّازَيْن ولفافة الصوف باهظة الثمن. أدخل قفّازَيْه في جيب المعطف، وعلّقه في الدولاب. وبينما كان المفوّض يرتجف من برد المكتب، ويُعيد جملته الأثيرة في أن سرباً من الطيور المهاجرة سيسقط قتيلاً من البرد، إذا ما مرّ في أجواء المكتب، كان العريف يرتجف في داخله بنوع آخر من القشعريرة. آه، ها هي القفّازات، نعم، القفّازات.

"بدأتَ العمل، هاه"، قالها المفوّض وكأنها تحيّة الصباح.

"أي عمل؟! أنا أُراجع صحف الصباح".

"ولا وجود فيها لما يشرح النفوس، كما هي العادة؟".

كان، تحت غشاء ذلك التبادل الفاتر للجمل، قَدْر من الانزعاج المُتبادَل، فهناك كلُّ ما يدلُّ على القلق والخوف في آنٍ. القفّازان، لم يكن العريف يُدرك ذلك، لكنه كان سيُثمِّن بشكلٍ كبير سلسلة

من تخطيطات الحفر على الزنك، أنجزها الرّسّام ماكس كلينغر(*)، وعنونها بـ "القفّاز". كان قفّازا المفوّض ينتصبان في ذهنه، ويتحرّكان، بالضبط كما تحرّكت حالة الشّابّ المُلاحق للقفّاز في تخطيطات ماكس كلينغير.

كانت الطاولتان قد وُضعتا في زاويَتَي الغرفة. وكان الرجلان جالسَيْن في تلك اللحظة إلى الطاولَتَيْن، كان المفوّض يفتعل الحركات مُتظاهِراً بمراجعة الأوراق التي أمامه، ويوحي بكونه غارقاً في دراستها، فيما ساورت العريف، لأكثر من مرّة، الرغبة في النهوض والتّوجّه إلى مكتب مدير الشرطة، ليروي له كل شيء. في ذلك الغضون، بدأ المفوّض بالتفكير بمخطّط إجرامي، وقد انتبه العريف إلى ذلك في الحال.

ففي لحظة ما نهض المفوّض من طاولته، وتوجّه إلى الخزانة الحديدية، وأخرج قنّينة زيت وخرقة قماش صوفي وشريطاً معدنياً يُستخدم في تنظيف المسدّسات وتزييتها. قال: "لقد مرّت سنون دون أن أُنظّف هذا المسدّس". أخرج المسدّس من حافظته المربوطة بحزامه، ووضعه على الطاولة، ثمّ فتحه، وأسقط منه عبوّة الرصاص على الطاولة.

---

*) Max Klinger ماكس كلينغر، رسّامٌ ألماني وُلد في لايبزغ في عام 1859 وتوفيّ في عام 1020. اشتُهر بتخطيطاته المُنجَزة بالحفر على الزنك، ومنها سلسلة بعشر تخطيطات بعنوان "القفّاز". وتروي هذه الأعمال قصّة ملاحقة شاب لقفّاز سقط من سيّدة تتزلّق على الجليد دون أن تنتبه إلى سقوطه. الشّابّ يسعى إلى حمل القفّاز من الأرض الجليدية، وتتحوّل تلك العملية إلى هَوَسٍ للملاحقة.

أدرك العريف في الحال حقيقة ما يجري. وبدأت الكلمات، في الصحف التي كان يتظاهر بقراءتها، بالتزاحم والتراكب، وتشكّلت في العنوان الذي كان المفوّض يتوقّع بأنه سيقرؤه في اليوم التالي: "مفوّض شرطة يقتل أحد عسكرييْه بالخطأ".

قال العريف "أنا أُنظّف وأُزيّت مسدّسي دائماً .. لكنْ، هل أنتَ رامٍ جيّد، يا سيّدي؟".

"في غاية البراعة والدّقّة" أجاب المفوّض.

فبادر العريف، كتحذير له وكتبرئة لضميره، إلى القول "انتبه، يا سيّدي، بأن القدرة على إصابة مركز هدفٍ ما ليست، وحدها، دليلاً على كون الرامي بارعاً. لأن هناك ثمّة حاجة إلى سرعة الحركة والمران ...".

"أعلم ذلك!".

"كلاّ، يا صاحبي"، فكّر العريف في سرّه، "فأنتَ لا تعلم شيئاً، أو ربّما تجهل ما أعلمه أنا".

وكان العريف يُودع مسدّسه كل صباح في درج مكتبه. فتح الدرج بهدوء، ودون ضوضاء. وصارت يده اليُمنى في تلك اللحظة أكثر براعة، كما لو أنها باتت أكثرُ من يد واحدة، وكانت مشاعره جميعها مُستفَزّة ومتأهّبة. وكل ما فيه يرتجف بتوتّر، كما لو أنّه

وترٌ معدني دقيق، سُحب إلى أقصاه. وكانت تلك هي الفراسَةُ الفلاحية القديمة في استباق الخطر، ولأنّه بالذات توقّع الأسوأ، فقد استيقظت في داخله الفراسة حتّى المنتهى.

انتهى المفوّض من تنظيف مسدّسه وتزييته، وأعاد تعميره بالطلقات، وقبض عليه مفتعلاً التصويب نحو ثُريّا المصابيح المعلّقة في السقف، ومن ثمّ إلى تقويم سنوي معلّقٍ على الجدار، وبمزلاج باب الغرفة، لكنْ، في اللحظة التي فاجأ بها بالتصويب نحو العريف، ألقى الأخير بنفسه برفقة الكرسي على الأرض، وكان قد أمسك بمسدّسه المغطّى بالصحف بعد أن أخرجه من الدرج، وأطلق رصاصة واحدة موجَّهة إلى قلب المفوّض الذي انهار على الأوراق المكوّمة أمامه على المكتب مضمِّخاً إيّاها بدمائه.

"كان مصوِّباً جيّداً"، وهو ينظر إلى الثقب الذي صنعتْهُ الطلقة في صدر القتيل "لكنّي كنتُ قد حذّرتُهُ": قالها كَمَن انتصر في سباقٍ ما. ثم انهار بعد ذلك، وغرق في بكاء أليم، وأسنانه تصطكّ ببعضها.

"لنختزل الحالة" قال مدير الشرطة. "لنختزل ولنُقرّر ... أعني تقرّر حضرتكَ، سيّدي وكيل النيابة: فبعد قليل، سنجد أنفسنا غارقين تحت سيل من الصّحفيّين عند باب المديرية".

وكان من بين الحاضرين في مكتب وكيل النيابة، كولونيل الدرك أيضاً، وكان العريف يقف أمامهم، كمُتَّهم في محكمة البداية.

"لنختزل، وإذاً ... حسب رواية العريف، وهي ليست خالية من مُثبتات دالّة ومن دلائل، أعترف، أنّني أخطأتُ في عدم أخذها في الاعتبار بما ينبغي، فإن الأحداث جرت كما سأعرضها لكم.

في أُمسيّة الثامن عشر، وصلت إلى مديرية الشرطة مكالمة هاتفية من قبَل السّيّد روتشيلا: كان يطلب بأن يذهب واحدٌ منّا ليرى شيئاً ما. يردّ عليه العريف بأن أحداً ما سيذهب في أقرب وقت. يُبلغ العريف تفاصيل المكالمة إلى المفوّض، ويتبرّع بالذهاب بنفسه إلى العنوان: لكن المفوّض يخبره بأنه لا يثق بعودة السّيّد روتشيلا بعد هذه السنين كلها من الغياب. ويُعرب عن قناعته بأن الأمر لا يعدو عن كونه أكثر من مَزْحَة ثقيلة الدم. ويطلب

من العريف أن يذهب في اليوم التالي ليُلقي نظرة على المكان. وبما أن اليوم التالي كان عيد القدّيس يوسف النّجّار، فإنه سيغيب، ولن يعثروا عليه. وهذا ما وقع بالفعل ... فثمّة احتمال أنّه قام بإبلاغ شركائه في الجُرم بالعودة غير المُنتظَرة للسّيّد روتشيلا، ومن المحتمل أيضاً أنه ذهب إلى هناك بنفسه، وأن السّيّد روتشيلا فتح له الباب، لكونه مفوّض الشرطة، وأنه وقف إلى جوار الطاولة التي تحمل الورقة التي كان السيد روتشيلا بدأ بكتابة رسالة عثوره على اللوحة، وفي اللحظة المناسبة، قبض على المسدّس الذي وضعه السّيّد روتشيلا على الطاولة، ووجّهه إلى رأس الرجل، وأطلق النار عليه. ثمّ وضع النقطة بعد جملة "لقد وجدتُ."، وغادر المنزل، كما وصل إليه مُغلِقاً الباب بمجرّد السحب.

عليّ أن أؤكّد هنا، كنقطة نقد ذاتي، بأن مَن انتبه خلال التحقيقات إلى وجود تلك النقطة الموضوعة بعد جملة "لقد وجدتُ." هو العريف، ووجدها حقّاً في غير مكانها، أعترف بأنّ تلك النقطة لم تُثِرْ اهتمامي بشكل كبير. فكّرتُ بأن السّيّد روتشيلا قد جُنَّ، وأنه أراد أن ينتحر تحت سمع الشرطة وبصرها. وبما أن كل شيءٍ كان سيُكتشف في اليوم التالي، فقد برزت لدى المشتركين في الجريمة ضرورة مُطلقة للإسراع في تفريغ المكان من اللوحات ومن أدوات العمل غير المشروع الذي كانوا قد باشروه في ذلك المكان، وقد نوديت العصابة بأسرها للإسراع في تنفيذ هذه المهمّة، وتمّ نقل كل شيء".

"إلى أين؟". سأل قاضي التحقيق.

"برأي العريف، وبرأيي، تمّ النقل إلى محطّة القطارات في مونتيروسّو، وحيث كان مراقب الخطوط ومساعده جزءاً من العصابة، وإنْ بمستويات دُنيا، وعلى صعيد الاتّجار البسيط للمخدّرات، ولكونهما كذلك، ارتعبا من وصول موادّ خارج قدراتهم. احتجّا، وربّما هدّدا بكشف المستور. فقُتلا في الحال. وكانا قد قُتلا عندما صعد صاحب الـ "ڤولڤو" الخضراء إلى المحّطة، وهرب منها في الحال على عجل... صاحب "الڤولڤو" لم يشاهد مراقب الخطوط ولا مساعده. بل شاهد قاتلَيْهما... وقد تأكّدنا من ذلك حين عرضنا عليه صورَتَي مراقب الخطوط ومساعده: واللّذَيْن لم يكن قد شاهدهما في حياته أبداً... ثمّ وقعت حادثة الزّرّ الكهربائي: والتي لم تُثر انتباه العريف وحده".

"يا له من بليد!"، قال القاضي، كمديح رثاءٍ للمفوّض. ثمّ أضاف "لكنْ، عزيزي مدير الشرطة، عزيزي الكولونيل.. هذا كلّه قليل للغاية... ما الذي سيحدث إذا ما قلبنا هذه الحكاية رأساً على عقب، عادّين بأن العريف يُلفِّق، وبأنه هو البطل الحقيقي فيما يتّهم بها المفوّضَ؟".

تبادل مدير الشرطة وكولونيل الدرك نظرة أعادت إلى ذهنهما جملَتَي التّعجّب اللّتَيْن صدرتا عنهما لحظة خروجهما من مكتب قاضي التحقيق قبل أيّام، تلك الـ "يا إلهي!" و"يا للفظاعة!".

"غير ممكن"، قالاها معاً، ثمّ استدار مدير الشرطة صوب العريف، وقال له "انتظر في الخارج، وسنُناديكَ بعد خمس دقائق".

ونادوا عليه بعد أكثر من ساعة.

"حادث عرضي" قال قاضي التحقيق.

"حادث عرضي" قال مدير الشرطة.

"حادث عرضي" قال كولونيل الدرك.

ولذا فقد صدرت صحف الصباح في اليوم التالي وهي تحمل عنواناً رئيساً يقول "عريف شرطة يقتل مفوّض مركز الشرطة بالخطأ خلال تنظيف سلاحه".

وبينما كانت تُجرى في مديرية الشرطة الاستعدادات لتحضير مراسم تشييع المفوّض (وكان تشييعاً رسمياً مهيباً) كان أفراد من الشرطة أخرجوا صاحب "القولقو" من زنزانة التوقيف، وكانوا يعملون على الانتهاء من الإجراءات البيروقراطية لإخلاء سبيله.

وكان، بعد انتهاء رجال الشرطة من الأمور الإجرائية، يستعدّ للخروج من المبنى وهو في حالة من نشوة فرحة وغاضبة في آنٍ، تقاطع مع الأب كريكّو الذي كان يحثّ الخطى لمباركة نعش الميت.

أوقفه الأب كريكّو بحركة من يده، وقال "يبدو لي أنني أعرفكَ. هل أنتَ من رعايا كنيستي؟".

"عن أيّة كنيسة تتحدّث؟ أنا لا كنائس لديّ"، ردّ الرجل، وخرج من المبنى بسرعة ومرح.

وعثر على سيّارته وقد علتْها غرامة لتوقّفها الطويل في المرآب المفتوح، دخل سيّارته، وهو يفكّر بأن هذه الغرامة لا شيء يُذكَر، على الإطلاق، إذا ما قيست بما واجهه في اليومَيْن الماضيَيْن. سخر من الغرامة، وقاد سيّارته مبتسماً.

خرج من البلدة متغنّياً بلحنٍ فَرِح. لكنّه أوقف السّيّارة بشكل مفاجِئ، بعد أن هيمن عليه قلق جديد "ذلك الراهب!"، قال في سرّه "ذلك الراهب ... كنتُ سأتعرّف عليه في الحال، لولا أنه كان يرتدي زيّ الرهبان: لقد كان هو مراقب خطوط السكك الحديدية في محطّة القطارات".

فكّر بالعودة إلى مديرية الشرطة مُجدّداً. لكنه عدل عن ذلك بعد لحظة واحدة من التفكير: "وهل ينبغي عليّ أن أورّط نفسي بمشكلة جديدة، ربّما أكبر ممّا تورّطتُ بها في السابق؟".

عاد إلى سياقة سيّارته صوب منزله وهو يدندن بالأُغنيّة ذاتها التي كان يصدح بها من قبل.

... تمت ...

ملحق

هذه مقالة كتبها مترجم الرواية الأستاذ القدير عرفان رشيد يعرض فيها لفيلم "حكاية بسيطة" المشغول على هذه الرواية "النوفيلا". أحببنا إرفاقها مع الكتاب للمهتمين بالسينما من قرائنا الأعزاء ولأننا بالفعل ننصح بمشاهدته.

فرجة ممتعة لكل من يشاهد.

الناشر

"حكاية بسيطة"، وفيلمٌ جميل.(*)

بالضبط كما حدث مع عدد كبير من أعمال ليوناردو شاشّا، فقد احتفت السينما الإيطالية بهذه الرواية الصغيرة أيضاً، وحوّلتْها إلى عمل سينمائي جميل، أنجزه المخرج الراحل إِيميديو غريكو(**)، وأدّى بطولته عددٌ من نجوم السينما الإيطاليّيْن، في مقدّمهم النجم الراحل جان ماريّا فولونتييه(***)، الذي أدّى دور البروفيسور فرانتزوُ، وكان ذلك آخر أدواره على الشاشة قبل رحيله المفاجِئ في عام 1994.

ويبدأ فيلم "حكاية بسيطة" بالبروفيسور فرانتزوُ بالذات وهو على متن الباخرة التي تحمله من إيطاليا إلى صقليّة التي تلفّعت

---

*) النّصّ مقتبس من برنامج تقديمي لفيلم "حكاية بسيطة" لإيميديو غريكو، والذي عُرض في عام 1991.

**) Emidio Greco إيميديو غريكو - مخرج سينمائي وسيناريست إيطالي. وُلد في 20 أكتوبر/ تشرين الأوّل 1938 وتوفيّ في روما في 22 ديسمبر/ كانون الأوّل 2012. أنجز العديد من الأفلام والنصوص السّينمائيّة، وفاز بجائزة أفضل سيناريو في دورة عام 1991 لمهرجان فينيسيا السّينمائيّ الدّوليّ، عن نصّ "حكاية بسيطة" الذي أنجزه بالتعاون مع الكاتب الراحل آندريا بارباتو.

***) Gianmaria Volontè جان ماريّا فولونتييه - أحد أفضل نجوم السينما والمسرح الإيطالي. وُلد في ميلانو في التاسع من أبريل عام 1933، وبعد إكماله دراسة المسرح في أكاديمية الفنون الدّراميّة بروما نهاية الخمسينيات، اقتنصتْهُ السينما، وأناطت إليه أدواراً لا تُنسَى، من بينها دوره في الفيلم الأوسكاري "ساكّو وڤانزيتّي" من إخراج أستاذ السينما الإيطالية جوليانو مونتالدو. توفيّ في السادس من ديسمبر 1994.

سواحلها بضباب مقتبل النهار. يتوجّه البروفيسور فرانتزوُ إلى غريب جلس إلى جواره بالمصادفة البحتة خلال رحلة العبور، بالسؤال الأزلي الذي ينبعث في رأس كلّ مَن تطأُ قدماه أرض هذه الجزيرة:

"كيف بمقدور المرء أن يكون صقليّاً؟"

وليس ذلك التساؤل مجرّد ترحاب من البروفيسور فرانتزوُ بالغريب القادم إلى الجزيرة للمرّة الأولى في حياته، بل أيضاً بمثابة إشعارٍ له بأن يكون يقظاً إزاء ما قد يُلاقي في صقليّة من غرائب لمجرّد أن تطأُ قدماه أرضها.

في حقيقة الأمر، لم يأتِ الغريب إلى صقليّة إلّا ليُنجز عمله التّجاريّ والتّرويجيّ لصالح شركةٍ لإنتاج الموادّ والعقاقير الطّبّيّة، ولم تخطر في باله أبداً فكرة أن يطرح تساؤلات حول المكان الذي ينزل فيه، أو على الأقلّ ما كان ليطرح تلك التساؤلات قبل الوصول، وربّما كان سيطرحها بعد مغادرته من صقليّة، ودون أن يُوّرط نفسه في قضايا، لا ناقة له فيها ولا جمل، بالذات هو، الذي كان قاب قوسَيْن أو أدنى من الوقوف في قفص الاتّهام بجريمة قتل.

وربّما ليست الحكاية بسيطة، كما قد تبدو في ظاهرها، وكما قد يوحي إلى ذلك عنوانها، كما ليس بالإمكان حفظ أوراق قضية موت الدّبلوماسيّ السابق الذي عاد إلى مسقط رأسه، على عَدِّها قضية انتحار سهلة. وهذا هو بالذات الشّكّ الذي يساور العريف الشّابّ، الذي كان قد استلم مكالمة هاتفيّة من الضّحيّة، يُنبّه فيها إلى أحداثٍ غريبة في منزله الرّيفيّ الذي عاد إليه بعد غياب طويل.

وتنفيذاً لتوجيه من رئيسه المباشر، مفوّض الشرطة، ذهب العريف إلى تلك الفيلاّ في اليوم التالي، وعثر الشّرطيّ على جثّة الدّبلوماسيّ السابق، برفقة ورقة كُتبت فيها جملة "لقد وجدتُ.".

يجد مندوب شركة إنتاج العقاقير والأدوية الغريب نفسه متورّطاً في القضيّة، رغماً عنه، بعد أن تقاطع خلال رحلته في الجزيرة مع قطار متوقّف قُبيل دخول المحطّة، وبما أنّه كان على متن سيّارته، يستجيب إلى رجاءِ سائق القطار بأن يتّجه إلى المحطّة، ليطلب من مراقبها تغيير شارة الضوء الأحمر المانعة لمسير القطار ودخوله المحطّة لوقت طويل. يستجيب الرجل إلى هذا الرجاء سعياً منه لحلّ مشكلة قائمة، ويفعل ذلك عن طيب خاطر، بِعَدِّه مواطناً صالحاً، إلّا أنّه يتعرّف فيما بعد من نشرات الإذاعية عن جريمة قَتْل مراقب المحطّة ومساعده. ويقرّر إذّاك التّوجّه طوعاً إلى مركز الشرطة، ليوضّح موقفه ممّا حدث، وحين يُطلب منه تحديد هويّة الضحيَّتَيْن، يُصرّح الرجل بأنّه لم يشاهد في دائرة المحطّة أبداً مَنْ تُعرض صورتهما أمامه في تلك اللحظة. غموض يتداخل مع حالات غموض أخرى، تقع في هذه البلدة الصّقلّيّة، والتي يُصعب تسليط الضوء عليها. لكنْ، حين يعود العريف إلى الفيلاّ برفقة رئيسه المباشر، تؤدّي حركة خاطئة من قبَل المفوّض إلى تثبيت شكوك العريف بتورّط رئيسه في حادث إغتيال الدّبلوماسيّ السابق. وتنتهي مُكاشفة ما بين العريف والمفوّض إلى مقتل الأخير برصاصة، استبقت إطلاقته الرامية إلى قتل العريف، وتتحوّل

الحكاية من مقتل عريف برصاصة، انطلقت بالخطأ إلى مقتل مفوّض برصاصة من مسدّس، كان العريف يقوم بتنظّيفها.

وعندما تُحَلّ العقدة، وتتضّح معالم الجريمة الأولى، تتحوّل الحكاية إلى أمر بسيط، فلماذا، إذاً، ينبغي تعقيدها؟ فلغرض الحفاظ على السمعة الطّيّبة للشرطة، لا ينبغي أن تُروى الأمور كما وقعت بالفعل، بل أن تكون "الحقيقة" التي يُتَّفق عليها هي الظاهرة على السطح.

في غضون ذلك، يُطلب من مندوب شركة الأدوية والعقاقير المغادرة، بعد فكّ فترة توقيفه رهن التحقيق، وبالضبط في اللحظة التي يُزمع فيها على الخروج من مركز الشرطة يتقاطع عند الباب مع راهب جاء إلى المكان ليُصلّي على جثّة المفوّض القتيل - القاتل، يعتقد مندوب شركة الأدوية بأنّ ذلك الوجه ليس غريباً عليه، وبأنّه سبق وأن شاهده في مكان آخر: إنّه بالذات الشخص الذي التقاه في دائرة محطّة القطارات التي عُثرت فيها على جُثّتَي مدير المحطة ومراقب السكك. وبعد لحظات من قراره بالعودة إلى مديرية الشرطة للإبلاغ عمّا اكتشفه، يتراجع مندوب شركة الأدوية عن ذلك القرار، عاداً ما مرّ به خلال الساعات السابقة من عذابات ومخاطر كافيةً، وأنّ عليه مغادرة ذلك المكان على أسرع ما يستطيع.

أداءٌ رائع للنجم الراحل جان ماريّا ڤولونتييه، عندما يروي أمام

قاضي التحقيق تفاصيل المكالمة الهاتفيّة التي جرت بينه والضّحيّة ليلة الحادث. من جانبه يُذكّر قاضي التحقيق أستاذَه السابق، وكنوع من التّحدّي، كيف أنّ مَنْحَهُ درجة 3 من 10 في درس الإنشاء، لم يَحُلْ دون أن يبلغ مقاماً عالياً في السّلّم التّراتبيّ للقضاء، لكنّه ينال من أستاذه السابق تعنيفاً أشدّ وأكثر إيلاماً، حين يُعيد إلى ذهنه بأنّه كان يحظى بتلك الدرجات الواطئة، لأنّه كان ينقل الدرس من طَلَبَة أكثر بلادة منه، مُضيفاً بأنّ "اللغة الإيطاليّة ليست مجرّد معرفة الكلام بها، بل هي، بالدرجة الأساس، طريقة التفكير بتلك اللغة ..." مؤكّداً له بأنّه يفعل الآن، كما في السابق، على إيجاد الحلول السّطحيّة، أي بمواصلة الامتناع عن استخدام المنطق والتفكير.

سنة الإنتاج 1991.

إخراج إيميديو غريكو.

الممثّلون: جان ماريّا فولونييه، ماسّيمو داپّورتو، إينيو فانتاستيكيني، ماسّيمو غيني.

وصُوّر الفيلم في بلدة ڤيتزيني بجزيرة صقلّيّة.

مَنْ هو ليوناردو شاشّا؟

وُلد ليوناردو شاشّا (Leonardo Sciascia) في بلدة راكالمُوتو بمحافظة آغريجينتو الصقلّيّة في الثامن من كانون الثاني/ يناير 1921، وعاش حتّى وفاته في العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1989 في عاصمة الجزيرة پاليرمو.

واشتُهِر مسقط رأسه كموقع غني بمناجم الكبريت. كان والده محاسباً في أحد هذه المِناجم، وليوناردو هو الأكبر بين ثلاثة أبناء؛ وقضّى جُلّ وقته في كنف عمّاته اللاتي أشرفنَ على تربيته، وزرعنَ فيه بذور الثقافة العلمانية.

في ثلاثينيات القرن الماضي، بدأ شاشّا الشابّ يَضيقُ ذرعاً بالنظام الفاشي، وقرأ عدداً من الكُتُب التي ستظلّ منارة هامّة بالنسبة إليه، من بينها أعمال لآليسّاندرو مانزوني(*)، فيكتور هوغو، جاكومو كازانوفا(**)، ودينيس ديدرو. وارتاد بشكلٍ مكثّف صالة السينما في

(*) Alessandro Manzoni ألساندرو فرانشيسكو مانزوني - أبو اليقظة الإيطالية، وأحد أكبر روائيّي إيطاليا عبر العصور، وتظلّ روايته الشهيرة "المخطوبان" علامة فارقة في الأدب الإيطالي. وُلد في ميلانو في السابع من مارس/ آذار 1785 وتوفيّ فيها في الثاني والعشرين من مايو/ أيّار 1873.

(**) Giacomo Girolamo Casanova جاكومو جيرولامو كازانوفا - مُغامرٌ، كاتبٌ شاعرٌ، دبلوماسي، فيلسوف وعميل سرّيّ إيطالي، من مواطني جمهورية فينيسيا (البندقية)، التي وُلد فيها في 2 أبريل/ نيسان 1725 وتوفيّ في دوتشكوف بجمهورية التشيك في 4 يونيو/ حزيران 1798. طغت شهرته كعاشق للنساء على إنجازه الإبداعي والفلسفي، واقتبس المسرح والسينما من ذلك الجانب في شخصيته العديد من الأدوار التي ستبقى حيّة، ومن بين تلك الأعمال شريط المعلّم الإيطالي الكبير فيديريكو فيلّيني "كازانوفا فيديريكو فيلّيني"، والذي أناط

مدينة كالتانيسيتّا(*). درس المرحلة الثانويّة في المدينة ذاتها، وتأسّست حينها صِلاتُه مع الأوساط المناهضة للفاشية، واتّسع طيف قراءاته صوب الكتّاب الأمريكان، كدوس پاسوس، إرنست همنغواي، ووليم فوكنر، وانتقل إلى الشِّعْر ابتداءً من الشاعر الكبير جوزيپّه أونغاريتّي(**)، وصولاً إلى الشعراء الفرنسيّيْن الرمزيّين، وإلى فلاسفة كبار مثل سپينوزا.

في عام 1936، اندلعت الحرب الإسبانية، وشكّلت تجربة مُضافةً في تكوين الشابّ ليوناردو، خصّص لها إحدى أجمل قصصه، والتي حملت عنوان "ساعات إسبانيا"، وتتناول حالة العاطلين عن العمل من الصقلّيّيْن الذين أرسلهم الديكتاتور بينيتو موسوليني ليموتوا في الحرب إلى جوار صنوه الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو.

في عام 1941 اشتغل ليوناردو شاشّا في كونسورسيوم زراعي كمختصّ في تِقْنِيّات تخزين القمح، ومنحه هذا العمل الفرصة ليتعرّف عن كثب على مقدار البؤس الذي يقاسيه عمّال المناجم والفلاحون والعاملون في أحواض الملح، وستظهر ملامح تلك الصلة جليّةً في كتابه "أبرشيات ريغالپيترا"، الذي أصدره بعد بضع سنين.

في عام 1944، وبعد أن هجر الدراسة في كُلّية التربية بمدينة ميسّينا، تزوّج من زميلته، المعلّمة ماريّا آندرونيكو، وأنجب منها ابنَتَيْه لاورا وآنّا ماريّا. وابتدأ بعد ذلك بنشر أولى قصائده ويومياته ومقالاته

فيه شخصية كازانوفا إلى النجم الكندي الكبير دونالد ساذرلاند.

*) Caltanisetta "قلعة النساء" بتسميتها العربية القديمة.

**) Giuseppe Ungaretti جوزيپّه أونغاريتّي - شاعر، كاتب ومترجم إيطالي كبير. وُلد في حَيّ محرّم بيك بالإسكندرية في مصر في 8 فبراير/ شباط 1888، إلّا أن ميلاده سُجِّل رسمياً في العاشر من الشهر ذاته. كان والداه من أصول إيطالية من مدينة لوكّا التّوسكانيّة. توفيّ في ميلانو في الثاني من يونيو/ حزيران 1970.

السياسيّة - الأدبية في عدد من الصحف الصادرة في المحافظة.

وشهد عام 1948 انتحار شقيقه الأصغر جوزيپّه وهو ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يعمل مديراً لأحد مناجم مدينة آسّورو، فتسبّب هذا الحادث لليوناردو بألم متواصل طيلة حياته، وسيرفض الحديث عنه وعن ملابسات الانتحار، إذْ لم يتمكّن أبداً من إيجاد تفسير مُقنع لذلك الفعل.

بدأ في عام 1949 بالعمل معلّماً في المدرسة الابتدائية في مسقط رأسه، وواصل ذلك حتّى عام 1957 دون أن يُشغف أبداً بمهنة التعليم، لكن غياب الشغف تجاه التعليم لم يُفقده البوصلة لمراقبة حالة مجتمع التلاميذ المنزعجين من سياسة محو الأُمية الإجبارية والقَصيّة عن احتياجاتهم الأساسيّة. وشارك ليوناردو شاشّا في العام ذاته في محافظة ميسّينا بتأسيس مجلّة حملت عنوان "غالّيريّا"(*) والتي سيرأس تحريرها منذ عام 1950 حتّى وفاته ضامناً لها إسهامات عدد كبير من الأقلام الهامّة في عالم النقد والإبداع الشِّعْريّ والروائيّ، إذ ابتدأت المجلّة نشرتها الأولى بافتتاحية، سطّرها پيير پاولو پازوليني(**).

بدأ الكتابة في عام 1956 عندما نشر عمله الأوّل، وكان بعنوان "أبرشيات ريغالپيترا"، وهي قصص من الحياة اليومية في جزيرة صقليّة.

---

*) Galleria - غالّيريّا - مجلّة أدبية كانت تصدر كلّ شهرَيْن في صقليّة، وصفها الكاتب إيليو فيتّوريني بأنّها "أفضل مجلّة أدبية صدرت في صقليّة على الإطلاق". من بين كتّابها، بالإضافة إلى شاشّا وفيتّوريني وبيير باولو بازوليني، كلّ من آلبيرتو مورافيا، ماريو پاز، إيميليو تشيكيّ، والناقد التّشكيليّ الكبير جوليو كارلو آرغان، والمعماري فيديريكو زيري.

**) PierPaolo Pasolini پيير پاولو پازوليني - الكاتب والشاعر والمخرج السينمائيّ والمسرحي الذي أحدث ثورة حقيقيّة في عالم الشِّعْر والسينما والرواية الإيطالية. قُتل في ظروف غامضة، وعُدَّ موته اغتيالاً سياسيّاً، ووُجّهتْ أصابع الاتّهام إلى أوساط سياسيّة وعصابات يمينيّة مُتغلغلة في مؤسّسات أمنية إيطالية، كونها دبّرت حادث قتله على ساحل بلدة أوستيا، إحدى ضواحي روما البحرية في 2 نوفمبر 1974. وأشارت تحقيقات صحفية كثيرة بأن الجريمة نُفِّذت لِوَأد صوت پازوليني للإقلال من تأثير مواقفه وآرائه الجريئة على أجيال الشباب والمثقّفين.

في عام 1958 أصدرت له دار نشر "لاتيرتسا" كتابه الذي حمل عنوان "أعمام صقليّة"، وحين أعادت دار "إيناودي" نشر الكتاب بعد عامَيْن أضافَ إليه قصّة رابعة. يعرض شاشّا في هذا الكتاب واقع صقليّة منذ ثورة 1848 وحتّى خمسينيات القرن الماضي، وهي قصص تتراوح ما بين الغروتّيسك والمأساة والآمال المُخيّبة على الدوام.

في عام 1961 أصدر كتاباً نقدياً بعنوان "پيرانديلّو وصقليّة"، وصدرت له في السنة ذاتها قصّة "نهار البومة"، وحظي الكتاب بترحاب كبير من النقّاد والقرّاء معاً.

ذات الترحاب والقبول ناله كتابه اللاحق "كتاب مصر"، والذي صدر في عام 1963. وهو عبارة عن رواية تاريخية، تدور أحداثها في پاليرمو في القرن السابع عشر.

ومن بين مؤلّفات ليوناردو شاشّا، تجدر الإشارة إلى كتاب البحث التّاريخيّ الذي حمل عنوان "موت محقّق التفتيش"، وصدر في عام 1964 عن دار نشر لاتيرتسا، ومسرحية "البرلماني" التي صدرت عن دار نشر "إيناودي" في عام 1965، إضافة إلى المقدّمة الذي وضعها للكتاب المصوَّر "الاحتفالات الدّينيّة في صقليّة"، وصدر عن دار نشر "دانّا" في عام 1965.

وصدرت له في عام 1966 رواية "لِكُلٍّ ما لَهُ"، وهو كتاب ثري آخر عن المافيا. وتبع ذلك في عام 1969 بعمل مسرحي عن فكرة التكفير المسيحيّة بعنوان "تمثيل التناقضات اللّيپاريتانيّة مهداة إلى أيْ دِي".

وأصدر في عام 1971 كتاباً بعنوان "فصول حول موت رايموند راسّيل"، وصدرت له في السنة ذاتها رواية "Il Contesto" وفي عام 1973 أصدر مجموعة قصصيّة بعنوان "للبحر لون النبيذ" وفي عام 1974 رواية "تودو مودو".

في عام 1975، وعلى الرغم من سجالاته مع النقّاد المقرّبين إلى الحزب الشيوعيّ الإيطالي، وافق شاشّا على الترشّح للانتخابات البرلمانية كمستقلٍّ ضمن قائمة هذا الحزب، وبعد انتخابه بفترة، استقال من البرلمان لرفضه القاطع لفكرة "التسوية التاريخيّة(*)" التي قاربت ما بين الحزب الشيوعيّ الإيطالي بزعامة إنريكو بيرلنغوير(**) والحزب الديموقراطيّ المسيحي بزعامة آلدو مورو(***)، وهو التقارب الذي أفضى إلى ميلاد حكومة جوليو آندريوتيّ(****) المدعومة من الحزب

---

*) Compromesso Storico "التسوية التاريخيّة" - هو الاتّفاق الذي توصّل إليه زعيما الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مورو وزعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي إنريكو بيرلنغوير، وضع نهاية للتضادّ حامي الوطيس بين قُطبَي المجتمع الإيطالي الرئيسَين. وفتح مرحلة جديدة في السياسة الإيطالية الأوروبية، أفضت إلى فتح آفاق التعاون في بناء الديموقراطيّات الغربية بعيداً عن المنظور الآيديولوجي الضيّق. وبرغم أفقها الإيجابي، فقد فتحت هذه "التسوية" الباب أمام تضادّات أخرى داخلياً وخارجياً، إذْ لم يَنَلْ ذلك الاتّفاق مباركات من قبل الولايات المتّحدة وأوساط من الفاتيكان ومن اليسار المتطرّف، وأُطلق العنان لمرحلة توتّر عميقة، بلغت قمّتها باختطاف آلدو مورو من قبَل "الألوية الحمراء" في مارس/ آذار 1978 واغتياله بعد 55 يوماً من الخطف.

**) Enrico Berlinguer إنريكو بيرلنغوير - زعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي الأسبق، تولّى زعامة الحزب بعد وفاة قائده التاريخيّ پاليميرو توليياتيّ، وقاده صوب استقلالية إيجابيّة من التبعيّة إلى الحزب الشيوعيّ في الاتّحاد السوفياتيّ، وشكّل، مع زعيمَي الحزبَيْن الشيوعيَّيْن الفرنسي والإسباني، جورج مارشيه وسانتياغو كاريّو، رأس الحربة فيما عُرف بالشيوعيّة الأوروبية، وأنجز "التسوية التاريخيّة" مع زعيم الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مور. تُوفّيَ في عام 1984 بعد إصابته بالجلطة الدماغيّة خلال تظاهرة حاشدة في مدينة پادوڤا القريبة من فينيسيا، وشهدت روما، لتوديعه، جنازة لم يسبقْ لها مثيل في تاريخها.

***) Aldo Moro آلدو مورو - رئيس الحزب الديموقراطيّ المسيحي الإيطالي ورئيس الحكومة لعدّة مرّات، اختطفتْهُ منظّمة "الألوية الحمراء" في شهر مارس/آذار 1978، واغتالتْهُ بعد 55 يوماً من الخطف، وعُثر على جُثّته في سيّارة رينو حمراء، أوقفها الخاطفون في شارع في روما، ينتصف المقرَّيْن الرئيسَيْن للحزبَيْن الشيوعيّ والديموقراطيّ المسيحي.

****) Giulio Andereotti جوليو آندريوتيّ - أحد أهمّ قادة الحزب الديموقراطيّ المسيحي ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد ترأّس الحكومة الإيطالية سبع مرّات، واستُوزر لمرّات عديدة، وشغل حقيبة الخارجية لعدّة مرّات. وفيما كان مُرشّحاً قوياً لرئاسة الجمهورية، اتُّهمَ بأواصر مع مافيا "كوزا نوسترا" الصقليّة وعرّابها الأكبر توتو رينا. وعلى رغم عدم ثبوت الاتّهامات ضدّ آندريوتيّ في هذا الصدد، إلّا أن ذلك الملفّ شكّل بداية النهاية لحياته السياسيّة التي بدأت منذ عام 1948، ونهاية تأثيره على المشهد السياسيّ الإيطالي بشكل عامّ. عُرف بسياساته

الشيوعيّ دون أن يكون ضمنها، وأسقطَ تشكيل تلك الحكومة الحظر الغربي على إسهام الشيوعييّنْ في الحكومات الإيطالية، وهو الحظر الذي كانت قد سنّتْهُ مآلات الحرب الباردة، وسياسة التّضادّ ما بين القطبَينْ، الغربي والسوفياتيّ.

وفي العام ذاته صدر له كتاب بعنوان "اختفاء مايورانا"[*]، وهو كتاب تحقيقي حول الظروف الغامضة لاختفاء العالِم الفيزيائي الإيطالي إيتّوري مايورانا، وسيكون ذلك الكتاب بالنسبة إلى شاشّا فرصة للتأمّل حول المسؤوليّة التاريخيّة للعلم والعلماء إزاء ما يحدث في الكون، وسيتحوّل الكتاب إلى مادّة لسجال حامي الوطيس مع العالم إدواردو آما لد ي[**].

وأعاد في عام 1976 إصدار مسرحية "تمثيل التناقضات الليپاريتانيّة مهداة إلى أيْ دِي"، وقد استخدم في هذا النصّ زمن الماضي للحديث عن الحاضر عبر استعارة لفكرة صراع كان قائماً داخل السلطة السياسيّة في صقليّة في القرن السابع عشر.

الهادئة، وسعيه المتواصل بجعل المتوسّط بُحيرة وئام، وكان على علاقات جيّدة مع الزعامات العربية منذ خمسينيات القرن الماضي.

*) Ettore Majorana إيتّوري مايورانا - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في 5 أغسطس/آب 1906، واختفى من إيطاليا في ظروف غامضة في 27 مارس/ آذار1938وهو التاريخ الافتراضي لوفاته، فيما تُشير بعض المصادر إلى وفاته في مكان مجهول ما بعد عام 1956وقد عمل كنظري ضمن الفريق الفيزيائي الإيطالي الشهير "شباب شارع پانيسپيرنا" بروما، والذي ضمّ من بين أفراده الفيزيائي الإيطالي الشهير إنريكو فيرمي. وبقيت ظروف اختفاء مايورانا غامضة حتّى اليوم، وحيكتْ حولها الكثير من التكهّنات والتأويلات.

**) Edoardo Amaldi إدواردو آمالدي - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في روما في 5 سبتمبر/ أيلول 1908تخرّج في جامعة روما في عام 1931 برفقة زميله إنريكو فيرمي، وشكّلا معاً، برفقة عدد آخر من زملائهما، جماعة "شباب شارع پانيسپيرنا". وانتقل إلى لايبزيغ بألمانيا لإكمال دراسته العلمية. أسهم بشكل فعّال بتأسيس المعهد القومي الإيطالي للفيزياء النووية، وتأسيس المجلس الأوروبي للبحوث النووية. وترأس في عام 1966 المدرسة العالمية لنزع السلاح وبحوث الصراعات. توفيّ في روما في 5 ديسمبر/ كانون الأوّل 1989.

وفي العام ذاته أصدر مسرحية "المافيويّون". كما صدرت له في عام 1979 رواية "أسود على أسود". ومسرحيّة "الطاعنون بالخناجر"، وكان ذلك تحقيقاً آخر في الأرشيف التاريخيّ لمؤامرة وقعت في پاليرمو في عام 1862، تناولها شاشّا بقراءة مُعاصرة آخذاً في الاعتبار الفترة التي ساد فيه ما سُمّيَ بـ "استراتيجية التوتّر" في إيطاليا في ستّينيات وسبعينيات القرن الماضي.

وابتداءً من عام 1977 بدأ شاشّا بقضاء شهور من السنة في باريس، وهي المدينة التي تنتهي فيها الرحلة المفترَضة لبطل روايته "كانديد، أو بالأحرى حلمٌ في صقليّة"، والتي يعدّها بمثابة "عملية تحرّرٍ" من أساطير مُعيقة مثل المسيحية والشيوعيّة، وحتّى التنويريّة. إنها رواية وُلدت من إعادة كتابة لعمل كبير لفولتير، وتنتهي بِعَدِّها شهادة فعّالة عن حالة التوتّر السائدة في إيطاليا آنذاك.

وفي عام 1978، ومن رَحِمِ "سنوات الرصاص" وُلد كتاب "قضية مورو"، وهو كتاب تحقيقي، حلّل فيه شاشّا الرسائل التي كان آلدو مورو، المختَطف من قبل إرهابيّي منظّمة الألوية الحمراء، يبعثها إلى عائلته وأصدقائه، والتي استُخلِصَ منها الموقف الحاسم الذي اتّخذتْهُ الحكومة برئاسة جوليو آندريوتيّ إزاء هذه المأساة، بدعم هامّ من قبَل الحزب الشيوعيّ الإيطالي، أي رفض التفاوض مع "الألوية الحمراء" بشأن مقايضة تحرير الرهينة بإطلاق سراح عدد من زعامات اليسار المتطرّف المعتقلين في إيطاليا.

في عام 1979 أصدر ليوناردو شاشّا ثلاثة كُتُب أخرى، بَدَتْ متباينة فيما بينها، لكنّها كانت، في حقيقة الأمر، متشابهة في النَّفَس الانتقادي الذي احتوتْهُ، "أسود على أسود"، وكان بمثابة يوميات عامّة، وتفاصيل حملت، في الغالب، نبرة ساخرة لاذعة؛ وصدر له أيضاً كتاب "صقليّة

كميثافور"، وهو حوار طويل، أجرتْهُ وإيّاه الصحفيّة الفرنسيّة مارسيل پادوڤاني(*)؛ وحمل الكتاب الثالث عنوان "في صفّ الملحدين" وهو تحقيق تاريخي مختزل للملاحقة التي مارستْها سلطة الكنيسة ضدّ الأسقف الصقليّ المونسنيور آنجيلو فيكارا(**) الذي رفض الانصياع إلى منهج الكنيسة الإيطالية في الاستخدام السياسيّ لمهمّة رجل الدِّيْن.

وتزامن عام 1979 مع موافقة ليوناردو شاشّا بالترشّح البرلماني لمجلس النوّاب الإيطالي في دورة الانتخابات التي جرت في تلك السنة، ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ الإيطالي المعروف بمواقفه الجَذْرية في الدفاع عن الحقوق والمطالب المدنيّة. وتحوّلت هذه المهمّة البرلمانية بالنسبة إلى ليوناردو شاشّا إلى فرصة للاطّلاع على خبايا قضيّة اختطاف آلدو مورو ومقتله، وذلك لكونه عضواً في اللجنة البرلمانية للتحقيق في الملفّ. وفي نهاية عام 1982 رفض شاشّا الموافقة على النتائج الواردة في خُلاصة مُقرّر اللجنة، المُمثّل للأغلبية داخل اللجنة، وأعلن على الملأ عن معارضة الأقلّية، ونَشَرَ تلك الوثيقة في مُلحق للطبعة الجديدة من كتاب "قضيّة مورو".

لم يكتب شاشّا أيّة رواية خلال الخمسيّة التي شغل فيها عضوية مجلس النوّاب (1981 - 1986)، إلّا أنّه أنجز - تحقيقات مثل "حوارات

(*) Marcelle Padovani مارسيل پادوڤاني. صحفيّة فرنسية وُلدت في عام 1947. تعيش في إيطاليا منذ سنوات طويلة. وتناولت ظاهرة المافيا الإيطالية في أكثر من كتاب، ويُعدّ كتابها - حوار مع ليوناردو شاشّا "La Sicila come Metafora" صقليّة كميثافور" واحداً من أهمّ القراءات للمافيا الصقلّية "كوزا نوسترا". (تحت الترجمة).

(**) Monsignor Angelo Ficara المونسينيور آنجيلو فيكارا - أسقف إيطالي شهير، تولّى رئاسة الكنيسة في مدينة كانيكاتيّ الصقلّية، وقاد أبرشيّة مدينة پاتيّ في صقليّة من عام 1937 حتّى عام 1957، حيث أُبعد بسبب مواقفه من استخدام الكنيسة كأداة في الصراع السياسيّ الإيطالي لصالح هيمنة الحزب الديموقراطيّ المسيحي، ولعرقلة تصاعد تأثيرات الحزب الشيوعيّ الإيطالي في صقليّة. تناول شاشّا عشرينيّة صراع الأسقف مع زعامة الكنيسة والحزب الديموقراطيّ المسيحي في روما في كُتيّب ثري بالمراسلات، بعنوان "في صفّ المُلحدين". (تحت الترجمة).

في غرفة مُغلقة" مع الكاتب دافيد لايولو؛ وجمع مختارات من المقالات المنشورة سابقاً في كتاب بعنوان "كلمات مُتقاطعة"، ومجموعة من المذكّرات بعنوان "عين العنزة"، وهو عبارة عن ذكريات وتأمّلات نابعة من مسقط رأسه "راكالموتو"، ونال عنه جائزة "نونّينو" الشهيرة للآداب. بعد ذلك أصدر كتابه الجميل "ستاندال وصقليّة - محاولة لرَسم صورة شخصيّة للكاتب في شبابه"، وكان الكتاب تحيّة إلى الكاتب الأرجنتيني الراحل خورخي لويس بورخيس؛ وأتْبَعَ ذلك بكتابه "مسرح الذكرى" الذي تناول فيه ما كان كتبه لويجي پيرانديلّو عن مواطن كولّينيو، فاقد الذاكرة؛ وأصدر بعد ذلك كتاب "قرارات حكم غير قابلة للنسيان"، حول قضيّة الفرنسي مارتين غيرّي(*)، وفاز به بجائزة باغوتا(**)، ومن ثمّ أصدر كتاب "الساحرة والقبطان"، وتدور أحداثه حول جماعة تدّعي السِّحْر في ميلانو بالقرن السابع عشر، واكتشف شاشّا ذلك على هامش قراءاته لنصوص آليسّاندرو مانزوني، ويظهر جليّاً في هذا الكتاب شكّ آيديولوجي واضح ومطلق في قدرة الرواية على تفسير وتأويل واقع إيطالي مُعقّد على تلك الشاكلة، ويؤكّد بأنّ امتلاك قدرة التفسير والتأويل يتطلّب انغماساً شاملاً في صُلب ذلك الواقع.

(*) Martin Guerre مارتين غيرّ - كان مارتين غيرّ مُزارعاً فرنسياً عاش في القرن السادس عشر، وصار "ضحيّة لقضيّة انتحال هوية إنسانٍ آخر". فبعد فترة من اختفائه وابتعاده من زوجته وابنه، ظهر رجلٌ ادّعى بكونه مارتين غيرّ، وعاش لثلاث سنين مع الزوجة. وبعد فترة من هذا التعايش برزت شكوك حول الهوية الحقيقية لهذا الشخص، وخضع إلى المحاكمة، واكتشف القضاة بأنّ اسمه الحقيقي هو آرنو دي تيله، وأنّه انتحل شخصية غيرّ. وترامنت المحاكمة مع عودة مارتين غيرّ الحقيقي إلى بلدته، واختتمت المحاكمة بإصدار قرار الإعدام بحقّ المُنتحل. وما تزال هذه القضية تُضرب مَثَلاً في القضاء كنموذج لانتحال الشخصيّة.

(**) Premio Baguta جائزة باغوتا. تأسّست جائزة باغوتّا الأدبيّة في الحادي عشر من نوفمبر/تشرين الثاني 1926، واستنبطتْها مجموعة مكوّنة من 11 كاتباً إيطاليّاً شاباً، كانوا اعتادوا على اللقاء الدوريّ في مطعم "باغوتّا" بمدينة ميلانو. وقرّر المجتمعون أنفسهم أعضاء في لجنة التحكيم التي اختارت الكتاب الفائز. وبتتالي الأعوام مُنحت الجائزة إلى عدد كبير من الكتّاب، من بينهم فيتاليانو برانكاتي وإيتالو كالفينو وليونيدا ريپاتشي وكارلو إيميلو غادّا وبريمو ليفي وبييرو تشيتاتي، وغيرهم الكثير.

في عام 1982، وبعد اغتيال والي پاليرمو الجنرال كارلو آلبيرتو ديلّا كييزا(*) من قِبَل المافيا، رفض ليوناردو شاشّا الامتداح غير المشروط لأداء الجنرال القتيل، ما دفع نجل الراحل، الكاتب السوسيولوجيّ، ناندو ديلّا كييزا، إلى اتّهام شاشّا بكونه يرغب في "ممارسة لعبة المافيا نفسها"، وتكرّرت الحالة بعد ذلك بوقت قصير عندما عُيِّن وكيل نيابة مارسالا، القاضي باولو بورسيلّينو(**) عضواً في قطب قضاة مكافحة المافيا بدلاً من قاضٍ آخر بأقدمية أكثر منه في السلك القضائي، وطالب شاشّا الدولة بالنأي بنفسها عن الاستخدام السياسيّ لمبدأ مكافحة المافيا، والإحجام عمّا حدث في زمن الفاشيّة، وتعرّض شاشّا حينها إلى هجوم إعلامي واسع، بلغ مستوى اتّهامه بالقرابة "الموضوعية" مع المافيا، في حين ذاد الكاتب عن نفسه مؤكّداً بأن اعتراضاته لم تكن موجَّهة ضدّ القاضي بورسيلّينو وشكوكاً حول مقدِرته وإسهاماته، بقَدْر ما كان اعتراضاً على المنهج الذي اتُّبع في هذا الصدد عبر تفضيل الجانب السياسيّ على الاستحقاقات المهنيّة، (وحسب مُطّلعين، فإنّ القاضي بورسلّينو أبدى تفهّمه للموقف الذي اتّخذه شاشّا).

وقام ليوناردو شاشّا في عام 1983 بجولة في إسبانيا مُحقّقاً خلالها عدداً من المقالات لجريدة "كورّييري ديلّا سيرا"، وجمع عدداً من بين الأفضل من تلك المقالات في عام 1988 في كتاب بعنوان "ساعات

(*) Generale Carlo Alberto Chiesa الجنرال كارلو آلبيرتو ديلا كييزا - أحد كبار قيادات الشرطة العسكرية الإيطالية (كارابينييري)، اشتُهر بمواجهته مع الإرهاب اليساري، وعُيّن والياً لپاليرمو إثر اغتيالات مافيوية لسياسيَّيْن كبار في جزيرة صقليّة، وتمكّنت منه المافيا، واغتالتْهُ برفقة زوجته الشابّة في كمين مرعب.

(**) Paolo Borsellino پاولو بورسيلّينو - قاضٍ ورئيس نيابة صقليٍّ، أسهم برفقة زميله ورفيق عمره جوفانّي فالكوني في إماطة اللثام عن الكثير من أسرار ومخطّطات ومؤمرات مافيا "كوزا نوسترا" الصقلّيّة. اغتالتْهُ المافيا برفقة خمسة من حمايته بتفجير مُخيف يوم 19 يوليو/ تمّوز 1992 في پاليرمو، بعد أقلّ من شهرَيْن من اغتيال فالكوني بتفجير مرعب في الطريق السريع ما بين مطار پاليرمو ومركز المدينة.

إسبانيا(*)"، وصدر الكتاب بالتعاون مع المصوِّر الصقليّ المعروف فيرديناندو شانّا، حيث ضمّ عدداً من صوره.

وفي العام ذاته اعتُقل مقدّم البرامج التلفزيونيّة الشهير إينزو تورتورا، واتُّهم بالقرابة مع المافيا، وذلك استناداً إلى اتّهامات واهية، أطلقها أحد عرّابي مافيا "لا كاموررّا" النابوليتانيّة، أظهر التحقيق القضائي بُطلانها فيما بعد. فما كان من ليوناردو شاشّا إلّا ووقف إلى جانب تورتورا، وترأس جمعية داعمة لترشيحه لعضوية البرلمان، وبالفعل انتُخب تورتورا عضواً في مجلس النوّاب في دورة الانتخابات البرلمانية في عام 1984 ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ.

وأصدر شاشّا في عام 1983 روايته المعنونة "الأبواب المفتوحة"، والتي جاءت نتيجة لالتزامه ومتابعته لنشاط "منظّمة العفو الدولية" ضدّ الحكم بالإعدام، واحتلّت مسألة العدالة صُلب اهتماماته المركزيّة، واستوحى القصّة من حكاية قاضٍ من مسقط رأسه راكالموتو، اسمه سلفاتوري بيتروني.

وفي السنة ذاتها أصدرت دار نشر بومبياني ضمن كلاسيكيّاتها الجزء الأوّل من الأعمال الكاملة لشاشّا، أشرف عليها بنفسه، وكتب مقدّمتها صديقه المقرّب الناقد الفرنسي كلود آمبروزي. في حين صدر الجزءان الآخران بعد وفاته.

تَردّتْ أوضاع شاشّا الصحّيّة بشكل كبير في عام 1988 واكتشف الأطبّاء لديه ورماً سرطانيّاً نادراً في نقي العظام، وهو ما كان يُجبره على علاجات طويلة ومؤلمة، وتثير روايته ما قبل الأخيرة "الفارس والموت"، والتي سجّل فيها شهادة عن المشاعر الرهيبة التي يتلمّسها مَنْ يرى

(*) Ore di Spagna ساعات في إسبانيا.

الموت على مقربة منه، وجاءت النتيجة عملاً رائعاً مفعماً بالتأمّلات حول حاضر إيطاليا والبشريّة ومستقبلهما.

وفي العشرين من نوفمبر من عام 1989 انطفأ ليوناردو شاشّا، لكنّه نشر قبل ذلك مجموعة من الأعمال، من بينها "حكاية بسيطة"، وهي قصّة ذات طابع بوليسي، بمغزى أخلاقي وسياسي، ونشر أيضاً كتاب "الألفباء البيرانديلّية"، وهو مهدى إلى الكاتب الصقليّ الشهير لويجي پيرانديلّو، الذي عدّه شاشّا الكاتب الأهمّ في حياته؛ إضافة إلى "قضايا مختلفة عن التاريخ الأدبي والمدني"؛ و"زادٌ لذاكرة المستقبل (فيما لو كان للذاكرة أيّ مستقبل)"، وهو الكتاب الذي ضمّ مداخلاته السياسيّة والمدنيّة الأساسيّة في أعوام الثمانينيات حول المافيا ومكافحتها.

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر 2010 احتفت مؤسّسة البريد الإيطالي بذكرى ليوناردو شاشّا، وأصدرت طابعاً بريدياً استذكارياً له.

ويحمل الطابع سعر 0.6 يورو، وقد صُمّم بصورة شخصية للكاتب الراحل في المقدّمة وإلى يمينه عدد من الكُتُب مفتوحة الصفحات، وفي الخلفية ثمّة صورة تمثّل خارطة جزيرة صقليّة، فيما وُضع اسم الكاتب وتاريخَي ميلاده ووفاته في أعلى الطابع، ووُضع اسم إيطاليا إلى الأسفل يمين الطابع. وأُنتج من هذا الطابع، الذي صمّمته الفنّانة ريتا مورينا، أربعة ملايين وحدة.

وأُرفق الطابع بمظروف مراسلات، حمل صورة الطابع مع الخَتْم البريدي لدائرة "راكالموتو" بصقليّة - مسقط رأس الكاتب -، في تاريخ يوم الإصدار، أي 23 أكتوبر 2010.



المترجم عرفان رشيد

ولد في مدينة خانقين (العراق) في 26 آب/أغسطس 1952، يُقيم في إيطاليا منذ عام 1978. تخرج من أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد - قسم الفنون المسرحيّة عام 1977. عمل محرّراً في القناة العربيّة الإيطالية "راي ميد"؛ أنجز العديد من البرامج والتقارير التلفزينية لتلفزيون دبي، إل بي سي، دويتشة فيله، وغيرها من القنوات التلفزيونيّة العربية؛ وهو مُعلّق ومحلّل لأوضاع الشرق الأوسط في العديد من القنوات التلفزيونيّة الإيطالية، وبالذات القناتين الرسميتين الأولى: "راي 1" و "راي 3".

عمل أيضاً مراسلاً صحفياً من إيطاليا و وموفداً إلى عدة بلدان أوروبية للعديد من الصحف العربية من بينها "الحياة" اللندنية، "راديو مونتي كارلو"، "دويتشيه فيله" الألمانية. "المدى" العراقيّة. أسّس ونسّق وأدار تحرير العديد من المواقع الاعلامية الالكترونية، من بينها:

الموقع العربي لوكالة "آكي" الإيطالية للأنباء؛ والموقع العربي لوكالة "أي جي آي " الإيطالية للصحافة؛ الموقع العربي الإيطالي "إيطاليا الثقافية" (www.Thaqafiya.con)، ويدير قناته الخاصة على اليوتيوب.

عرفان عضو في جمعيّة الصحافة الأجنبيّة في إيطاليا منذ عام

1982، وعضو نقابة الصحفيين الإيطاليين منذ 5 حزيران 2002، وعضو في جمعية الصحافة في إقليم توسكاني منذ عام 2002.

ألف كتاب "سينما البلدان العربية" صادر باللغة الإيطالية عن دار نشر مارسيليو الإيطالية (مؤلّف مشارك)؛

ترجم رواية "الرفيق" للكاتب الإيطالي تشيزيره پافيزه، المنشورة من قبل "منشورات المتوسّط" في ميلانو؛ وترجم ثلاثية الكاتب الصقليّ ليوناردو شاشّا. ورواية "زمن القتل" للكاتب الإيطالي إينيو فلايانو.

خلال سني خبرته الإعلامية التي قاربت أربعة عقود حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية من بينها:

- جائزة "إسكيا - صحفي العام" عام 2006

- جائزة نقّاد السينما في مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي 2018

- شهادة تقديرية تثميناً للجهد الإعلامي والصحافي من قبل نقابة الصحفيين في إقليم توسكانا.



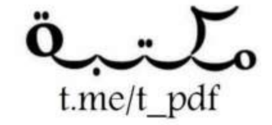
سلسلة حكايات المافيا

تأتي هذه السلسة في سياق عمل منشورات المتوسط على تعريف القارئ العربي بالثقافة والتقاليد والظواهر التي أثّرت في بناء وتطور المجتمع الإيطالي. حيث تقوم هذه السلسلة على إصدار وترجمة أعمال روائية وسيرية تناولت ظاهرة المافيا وحاولت فهمها عن قرب، لما لها من أثر كبير في الحياة الاجتماعية، ليس في إيطاليا وحسب، بل في دول كثيرة من العالم مثل الولايات المتحدة والصين واليابان وتركيا وغيرها من الأمم التي تأسّست فيها مافيات على النمط الإيطالي، لكن بأسماء وبُنيات مختلفة.

وعلى ما في سلسلة "حكايات المافيا" من وعودٍ بنصوص رفيعة المستوى من حيث منظورها الاجتماعي والأخلاقي، ومن حيث حبكاتها الحافلة بالتشويق والترقب والغموض؛ فإنها تتطلع إلى أن تساهم في تشكيل أرضية فكرية لمعرفة آليات تفكير المافيا، وبالتالي المساهمة في تفكيك العقلية الإجرامية التي تقوم عليها، الأمر الذي يدفع إلى تمكين القارئ من الإحاطة بكل مافيا تنشط في محيطه المحلي، سياسية أو دينية أو اقتصادية، مهدّدةً حياته ومغلقةً دروب مستقبله.

لوغو السلسلة ومقاصد المتوسط

القارئات والقرّاء الأعزاء.. عُرف عن بعض عصابات المافيا أنها إذا قرّرت تصفية أحد ما تُرسل إليه رسالة تحتوي على صورة كفٍّ أسود. ومن يتلقى ذلك البريد يدرك على الفور أن أيامه أوشكت على نهايتها. اعتمدنا الكف السوداء كشعار لهذه السلسلة، فإذا استلم أحدكم أيّ كتاب من كتب هذه السلسة فلا داعي للقلق أبداً، فيكفي أن يقرأ الكتاب كاملاً ثم يسارع إلى اقتناء كتاب آخر من كتب السلسة أو غيرها، فالقراءة وحدها القادرة على أن تبطل مفعول الكف الأسود للمافيا.



فهرس الكتاب

بِقَدْر بساطة هذه الحكاية بِقَدْر تعقيدها، هي أُحجيَّة صقلِّيَّة بخلفيَّة من المافيا والمخدِّرات، ولكنَّ شاشا يرويها دون أن يكون مضطرّاً لذِكْرها، وهنا تكمن براعة شاشا.

كلُّ شيء يبدأ باتِّصال هاتفي بقسم الشرطة، ينقل رسالة غامضة، توحي بانتحار أحدهم، ثمَّ، وكما لو أننا نشاهد فيديو سريعاً، يرصد تفتُّح وردة جوري، تبدأ الأحداث بالتسارُع والتوسُّع والتشابُك، وإزاء هذه الكثافة سنكون، جميعاً قُرَّاء وشخصيات الرواية، مَدعوِّين للتحفُّز واليقظة تماماً مثل ما يفعل عريف الدَّرَك في بحثه عن الحقيقة طيلة الوقت. الوقت الذي يتمُّ اختزاله في هذا العمل الروائي الأثير إلى جزء من الثانية. وربَّما هنا تكمن خطورة المراهنة أمام مَنْ يريد أن يُدركَ على نحوٍ دقيق الاحتمالات التي لا تزال قائمة أمام العدالة.

الناشر



ISBN 979-12-80738-04-2
9 791280 738042
المتوسط